الفصل الثالث

الرحلة.. والأدب الجغرافى

obeikandl.com

obeikandl.com

الأدب الجغرافى

النماذج التى يتناولها هذا الفصل نماذج متميزة على أرض الواقع، فأغلب أصحابها كانوا من المشهورين بحب الترحال، حتى إن الواحد منهم كان اسمه يصدر بلقب «الرحال».

ورغم هذا التميز فإن حصاد الرحلات الطويلة لم يدون بصورة لائقة عند كل من : التاجر سليمان ، وأبى دلف، والمسعودى، بينما كان الحال أفضل عند الباقين، خاصة المقدسى وابن حوقل.

والنصوص التى بين أيدينا تكاد تكون الأثر الوحيد لمعظمهم، ولذا فقد كان متوقعا أن يبالغ كل منهم فى التجويد. ولكن مفهوم التجويد عندهم كان يعنى التزام مناهج علمية صارمة، والبعد عن حكاية التجارب الخاصة التى يظنون أن أولياءهم- أو قراءهم العاديين- لن ينتفعوا بها.

إن نص التاجر سليمان يكاد يكون الأثر الأول المعروف الذى يتناول منطقة الهند والصين بالوصف، مستعرضا مراحل الطريق البحرى، ومعرفا مواطنيه بعادات وتقاليد هذين الشعبين، ورسالتا أبى دلف وكتابات المسعودى يمثلان نموذج التناقض الشديد بين الواقع وتسجيله، فكلاهما كان دائم الترحال، ولكن شيئا طريفا من تجاربهما لم يسجل فى أعمالهما، بحيث تقترب من أدب الرحلة.

أما أصحاب المدرسة الكلاسيكية فقد أدوا خدمات جليلة للعلم فى عصرهم، فقد كان هدفهم واضحا، ومحاولاتهم لتحقيقه جادة، ومن ثم فقد قدموا نموذجا متميزا للجهد العلمى المتكامل، وإن كان يؤخذ عليهم اقتصارهم على وصف مملكة الإسلام فحسب.

والنموذج الأخير المتتبع لخطى هذه المدرسة- والمطور لها- كان أكثر النماذج طرافة، واقترابا من أدب الرحلة. ولو أنه لم يضع لنفسه نهجا علميا محكما منذ البداية، لكان لعمله شأن آخر فى خريطة أدب الرحلة.

- ١ -

فى عام (٢٣٧هـ - ٥٨١م) سجل عربى اسمه «سليمان» انطباعاته عن رحلاته إلى الهند والصين والطرق المؤدية إليها. وكتابه لم يعرف عنوانه، فقد ضاعت صفحاته الأولى؛ لذا وضع المستشرق الذى نشر المخطوط مع مطلع القرن التاسع عشر- وضع اسما مقترحا هو : «سلسلة التواريخ» ، وهو اسم لايعبر- بحال- عن مضمون الكتاب. ولعل هذا التصرف يدل على خطورة إسناد تحقيق كتب التراث لمثل هذا المستشرق الذى جنى على الكتاب جناية كبيرة؛ فأخرجه مسخا مشوها، حاويا للأخطاء من كل نوع.

مع ذلك، يظل الكتاب أول أثر يمكن الاتكاء عليه فى تعرف طبيعة العلاقات بين العرب والهند والصين آنذاك، كما يظل أول أثر عربى يصف المنطقة بأسرها وصفا حيا مباشرا.

ونسبة الكتابة إلى التاجر سليمان لايعتورها شك، رغم أن بعض علماء «الصينيات» قد تشككوا فى نسبة القصص إليه.. ومن الملاحظ أنه لاترد فيه إشارة إلى سليمان إلا مرة واحدة «ص١٤»، غير أن «فيران» قد لفت الأنظار إلى أن «ابن الفقيه» ينسب القصص صراحة إلى سليمان. ولهذا فإن مسألة تأليفه لها لايحوم حولها أدنى شك[١] . كما أن الثقة فى معلوماته أكدها القدماء والمحدثون؛ فأبوزيد السيرافى- ناشر الكتاب قديما- يعلق على الكتاب جملة قائلا: «وجدت تاريخ الكتاب سنة سبع وثلاثين ومائتين، وأمور البحر فى ذلك الوقت مستقيمة لكثرة اختلاف التجار إليه من العراق. ووجدت جميع ماحكى فى الكتاب على سبيل حق وصدق، إلا ماذكر فيه من الطعام الذى يقدمه أهل الصين للموتى منهم»[٢] يضاف إلى ذلك أن الدراسات الحديثة أثبتت أنه: «يصف الطريق بدرجة من الدقة مكنت «فيران» من أن يتتبعه على الخارطات الحديثة. وهو خير مثال للتجار العرب والفرس الذاهبين إلى الصين.. كما ثبت أن المعلومات التى أوردها عن «كانتون»

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١٤١/١.

(٢) سلسلة التواريخ: التاجر سليمان، أبو زيد السيرافى، تحقيق لانجليس، باريس ١٨١١، ص ٦١

تتميز بالفصيل والدقة»[1] . ويؤكد باحث على أن هذا الكتاب شاهد على عناية علمية شديدة كان يتصف بها التجار العرب فى تزويدهم قراءهم من الشعود العربية لذلك العهد بمعلومات فريدة هامة عن بلاد الشرق القاصية[2] . كما ينبه باحث آخر إلى أن القيمة الجغرافية للكتاب كبيرة، لأنه يلخص المعرفة الجغرافية عند العرب قبل عام (٢٣٦هـ- ٨٥٠م)، ويقدم الكتاب كمية كبيرة من المعلومات عن البحار والجزر والطريق البحرى من سيراف إلى الصين»[3] .

يمثل الكتاب تسجيلا لمعارف وانطباعات التاجر سليمان عن الهند والصين، والطريق البحرى المؤدى إليهما. وهو ليس نتاج رحلة أو رحلتين، بل نتاج رحلات متعددة استغرقت فترة زمنية طويلة، حتى إنه زار مكانا بعينه- فى الهند- بعد ستة عشر عاما من زيارته الأولى له[4] .

كان هم التاجر سليمان أن يقدم معارفه بطريق مباشر، ولأن هذه المعارف نتاج رحلات- لا رحلة- فقد استباح لنفسه أن يقدمها كيفما اتفق، غير ملتزم بنهج أو خطة تفصيلية، ولأنه يقدم معلومات، نسى- أو تناسى- أنه صاحب هذه الرحلات، فلم يلتفت إلى نفسه إلا فى مواضع قليلة، لم تسهم- بحال- فى رسم صورة واضحة ودقيقة لشخصه. رغم ذلك يبدو التاجر سليمان مغامرا جريئا، يسافر فى سبيل الربحين: المعنوى والمادى. كما يبدو دقيقا متعمقا فى ملاحظاته أحيانا، ساذجا فى أحيان أخرى، تسيطر عليه طبيعة التاجر الذى يتابع كل ما من شأنه أن يؤدى إلى ربح.

فى سفراته العديدة اتخذ التاجر سليمان من البحر سبيلا- بل صديقا، فأتاحت له هذه الصداقة معرفة جيدة به. وكانت الترجمة العملية لهذه الصداقة أن افتتح كتابه بالحديث عن أهم البحار، أو بعبارة أخرى- أهم أجزاء المحيط الهندى، ففصل هذه الأجزاء، وأثناء حديثه عن كل جزء كان التداعى يحكمه فيذكر كل

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي ١/ ١٤١.

(٢) الجغرافيا عند المسلمين ١٤٠

(٣) الجغرافيا العربية ٦١.

(٤) سلسلة التواريخ ٥١.

مايتعلق بالبحر من عجائب وسكان وخصائص. ثم تراءى له- بعد هذا الشرح المفصل- أن يلم شتاته، فكان الوصف الدقيق- للغاية- للطريق البحرى، وما يحدث أثناء السير فيه- كان الحل الأمثل لذلك.

هذا الخط الملاحى قد ينتهى فى الهند، وقد ينتهى فى الصين، ويكون مبرراً- حيئذ- أن يتوقف التاجر سليمان عند هذين البلدين متحدثا عنهما منفردين أحيانا، ومقارنا بينهما فى أحيان أخرى، محكوما- فى الحالتين كلتيهما بمنطق التداعى.

ولأن البحر كنز عجائب وغرائب، كان طبيعيا أن يركز على كل ماهو عجيب وغريب، وأن يتجاهل كل مألوف- فى اعتقاده، ولكن- يلاحظ أنه حينما يروى عجيبا أو غريبا، لاتنم تعبيراته عن انفعاله به، إنه يرويه كشىء مألوف، فهل كان لسفراته المتعددة أثر فى ذلك؟ ويلاحظ كذلك أن مايرويه يمكن قبوله باعتباره محتملا، وقليلا مايروى مايعد مستحيلا، بل إنه إذا لمح شيئا من المبالغة فى حكاية ما- سارع إلى التأكيد على أنه عاينها بنفسه، ومن ثم فلا مجال للشك فيها.

لقد كان نزوعا ايجابيا أن يحاول التاجر سليمان تفسير بعض الظواهر الطبيعية، ولكن هذا التفسير يغلب عليه طابع الظن والتخمين. كما كانت ملاحظاته الدقيقة المعتمدة على الاستنفار الدائم للحواس شهادة له بوعيه بدوره الذى من أجله خرج.

ولأن الحواس مستنفرة؛ لم يكتف بما رأى أو سمع بنفسه، وإنما استعان بغيره، فاستعار منهم مالفت أنظارهم وما أعجبهم، وضمنه كتابه، ناصا على ذلك بقوله: «ذكروا،» وكأنه باحث يستعين بكل الوسائل المتاحة ليخرج بحثه فى صورة مرضية. لقد استقصى حتى علم كيف يؤرخ الهنود، وتعرف على نظام حكمهم، ثم كان تفصيله الرائع لعادات وتقاليد الصينيين تفصيل من عاشرهم وخبرهم ردحا طويلا، ولم يكتف بذلك، فحكم مقاييسه العقلية فى المقارنة بين هذين الشعبين، ليخرج بحكم يشتم منه تفضيل الهنود على الصينيين.

لم يكن التاجر سليمان ينوى وصف رحلة واحدة من لدن بدايتها حتى نهايتها، وإنما كان هدفه تقديم صورة شبه كاملة عن الهند والصين، وما يؤدى إليهما، لذا كان الاستطراد طابعا عاما سائدا. وهذا الاستطراد تراوح بين الخروج

الجزئى والخروج الكلى عن الموضوع.

يبدأ التاجر سليمان بذكر البحار والجزر التى يصادفها راكب البحر إبان سفره إلى الصين، ولاينسى حين يذكر بحرا أن يذكر عجائبه، وحين يذكر جزيرة يفصل أحوال سكانها، وعاداتهم، وتقاليدهم، مركزا على ماهو عجيب وغريب.

وفى نص ذى أهمية يفصل التاجر سليمان المراحل التى يمر بها المركب- أو السفينة- من لدن الرحلة حتى نهايتها، بيد أن الوصف الخارجى يفقد هذا الجزء المميز كثيرا من حيويته. ثم يشرع فى ذكر أخبار بلاد الهند والصين وملوكهما، وموقفهم السياسى من العرب. وتركيز العدسات على الصين واضح، فقد أفاض فى وصف مظاهر الحضارة الصينية، بدءاً من عاداتهم فى الطعام والشراب، مرورا بنظام الحكم المركزى والمحلى، ونظام الجمارك، وأوضاع المسلمين، ونظام القضاء والضرائب والسفر، والمعاملات المالية بين أفراد الشعب، ونظام التأمينات الاجتماعية، والعلاج، والزواج، ودفن الموتى، والديانات. ثم ينتهى بعقد مقارنة مكثفة بين الصين والهند، وهو- فى كل ذلك- لايكتفى بالنقل، بل يتعداه إلى النقد الذى يتخذ صورة جادة حينا، وأخرى فكاهية حينا آخر، كما يلمح بعض الصور الطريفة التى تنم عن قوة ملاحظة.

ولأن التاجر سليمان لم يرض بالنهج التقليدى المعتمد لتدوين الرحلات، فقد لجأ إلى البديل.. لجأ إلى بنية المحاور، فركز عدساته على ثلاثة محاور رئيسية هى:

١ - البحر، وكل مايتعلق به من عجائب وجزائر وخطوط ملاحية. إلخ .

٢- وصف الهند وأهلها .

٣ - وصف الصين وأهلها .

وقد استأثر المحور الثالث باهتمام التاجر سليمان تلاه المحور الأول، فالمحور الثانى.

وبعد أن اختمرت فكرة المحاور تلك فى ذهنه، شرع يدون كتابه، فاستعان بذاكرته القوية، ولكن الاعتماد على الذاكرة فحسب طبع الكتاب بطابع الاستطراد، والخلط، والتداعى.

ولأن سليمان تاجر، فقد اقتصد فى وصفه، وجاء أداؤه اللغوى متسقا مع

وظيفته، فمفرداته سهلة واضحة- إلا ما كان محكيا عن لغته الأصلية، وفى هذه الحالة يحاول شرحه، فملك «الصين اسمه البغبون، ومعناه: ابن ماء السماء، ونحن نسميه «المغبون»[١]. وما كان من مدينة صغيرة يسمى ملكها «طوسنج» ومعنى، «طوسنج» أقام المدينة، وماكان من مدينة مثل «خانفوا» فاسم ملكها «ديفو»، وقاضى القضاة يقاله: «لقشى مامكون»، ونحو هذا من الأسماء مما لانضطبه»[٢].

وقد يستفاد بكتاب التاجر سليمان فى معرفة الجذر اللغوى لكلمة، مثال ذلك إشارته الطريفة للشاى- قبل أن يعرفه العرب، فالملك يختص «بالملح وحشيش يشربونه بالماء الحار، ويباع منه فى كل مدينة بمال عظيم، ويقال له «الساخ»، وهو أكثر ورقا من الرطبة، وأطيب قليلا، وفيه مرارة: يغلى الماء ويذر عليه، فهو ينفعهم من كل شىء»[٣].

وتمتاز جملة التاجر سليمان بقصرها، وأدائها الغرض بسهولة، دون قصد إغراب، أو تعقيد. إنه يصف نظام التأمينات الاجتماعية فى الصين، يقول: إذا ولد لأحد ذكر كتب اسمه عند السلطان، فإذا بلغ ثمانى عشرة سنة أخذت منه الجزية، فإذا بلغ ثمانين سنة لم تؤخذ منه جزية، وأجرى عليه من بيت المال، ويقولون: أخذنا منه شابا، ونجرى عليه شيخا»[٤].

ولعل خلو الكتاب من المواقف الحوارية قد أفقده بعض الحيوية، غير أن الصور الطريفة الكثيرة قد عوضت هذا النقص تعويضا جزئيا. ومايجب التنبيه عليه أن الكتاب يحتاج إلى إعادة تحقيق ونشر لأنه يمثل قيمة كبيرة يجب الحفاظ عليها، والاعتناء بها.

---

(١) سلسلة التواريخ ٤٦.
(٢) السابق ٣٨.
(٣) نفسه ٤١.
(٤) نفسه ٤٧.

شغل المستشرقون منذ قرن ونصف القرن بالأثر المسمى «الرسالة الأولى» للرحال العربى أبى دلف مسعر بن مهلهل الينبوعى الخزرجى- ثم شغلوا منذ نصف قرن بدراسة النص الكامل «للرسالة الثانية» بعد أن درست كنصوص مفرقة.

ورغم أن أبا دلف عاش الجزء الأكبر من حياته فى بلاد فارس- متنقلا بينها- فإن أصله عربى، واسمه دليل على أنه كان يقطن الجزيرة العربية التى ولد فيها- قبل رحيله عنها.

وكان قد عاش تسعين عاما[١] حين ألف الثعالبى كتابه «يتيمة الدهر» عام (٤٠٠ هـ- ١٠٠٩م)، ولذلك يكون مولده حوالى عام (٣١٠هـ- ٩٢٢م).

والفترة السابقة على حلوله «خراسان» مجهولة تماما، ولا إشارة يمكن الاتكاء عليها بصددها إلا قوله: «ولما نبا بى وطنى، ووصل بى السير إلى خراسان ضاربا فى الأرض»[٢]. ويستنتج من ذلك أن ثمة صعوبات واجهته فى موطنه أجبرته على الرحيل.

مصادر المعلومات :

١ - لعل أهم مصادر المعلومات عن أبى دلف أعماله نفسها، وخاصة الإشارات الداخلية فى رسالتيه مثل: التواريخ والإشارات إلى الحكام المعاصرين، واتجاه الرحلة.. إلخ[٣]. وفى هذا الصدد جمع «مينورسكى» اثنتى عشرة إشارة من هذا النوع متفاوتة فى أهميتها.

٢ - «الفهرست» لابن النديم «ألف عام ٣٧٧هـ- ٩٨٧م» حيث يذكر مقابلته الشخصية لأبى دلف، وينقل عنه نصين قصيرين[٤]، كما يعلن أنه «كان جوالة».

---

(١) يتيمة الدهر ٣/٣٥٢.

(٢) معجم البلدان ٣/٤٤١.

(٣) Abù - dulaf Misar ibn Muhalhil's Travrels in Iran V. Minorsky - Cairo University - 1955. P. 1.

(٤) الفهرست ٤١٠، ٤١٢.

٣ – يتيمة الدهر للثعالبى «٣٥٠هـ– ٤٢٩هـ = ٩٦١ – ١٠٣٨م)، وهو أهم مصدر للمعلومات عنه[١].

٤ – «دمية القصر» للباخرزى، حيث ينقل عنه بعض أشعاره[٢].

٥ – «لطائف المعارف» للثعالبى أيضا، حيث ينقل عنه نصا فى «خصائص البلدان» كان جديرا بأن يكون خير ختام لكتابه[٣]، وقد تكرر نقل هذا النص فى أكثر من مصدر، بيد أن تشويها وتحريفا أصاباه فيها، كما فعل أبو حامد الغرناطى فى «تحفة الألباب»، «وعمر بن الوردى» فى «خريدة العجائب».

قبل عام (٣٣١ هـ = ٩٤٣ م) بقليل «ظهر أبودلف للمرة الأولي فى بلاط نصر بن أحمد السامانى (حكم ٣٠١ – ٣٣١ هـ = ٩١٣ – ٩٤٣م)، وفى هذا الوقت وصلت سفارة ملك الصين «قالين بن الشخير» تطلب المصاهرة بين الأسرتين المالكتين، ولكن الأمير السامانى رفض تزويج ابنته لكافر، ومع ذلك قبل أن يتزوج أحد أبنائه إحدى الأميرات الصينيات, وعادت السفارة إلى سندا بل (خانفو) ومعها مبعوثو نصر، وبصحبتهم أبو دلف... وpينئذ مات نصر (٣٣١ هـ = ٩٤٣م) قبل وصول الأميرة التى زوجت – فى هذا الوقت لابنه «نوح بن نصر» (حكم ٣٣١ – ٣٤٣ هـ = ٩٤٣ – ٩٥٤ م) وأصبحت أم الأمير عبد الملك (حكم ٣٤٣ – ٣٥٠ هـ = ٩٥٤ – ٩٦١)[٤].

وبعد عودة أبى دلف من هذه الرحلة تعددت نشاطاته، فالثعالبى يخبر أنه «كان يشعر ويتطبب ويتنجم»[٥]. ومينورسكى يستنتج أنه «كان معروفا عند البعض كشاعر فى الأساس، بينما عرف كرحال – فقط – عند آخرين، والآن نرى أنه يدعى – بنفسه – البراعة فى العلوم الطبيعية»[٦]. يضاف إلى ذلك انتماؤه لطائفة

---

(١) يتيمة الدهر ١٨٩/٣، ٣٥٢/٣ – ٣٧٣، ٢/ ٤٠٠، ٣/ ٢٢٣ – ٢٢٥.

(٢) دمية القصر. الباخرزى. تحقيق د/ سامى مكى العانى. مطبعة المعارف. بغداد ١٩٧٠، ١٣٥.

(٣) لطائف المعارف. الثعالبى. تحقيق إبراهيم الإبيارى وحسن كامل الصيرفى. البابى الحلبى ١٩٦٠، ٣٣٤.

(٤) Minorsky. P. P. 4 - 5

(٥) يتمية الدهر ٢/ ٤٠٠.

(٦) Minorsky. P. I

«الساسانيين» التى اتخذت من الحيل والخدع وسيلة للكسب. ولعل هذا التنوع فى النشاط يعود إلى تطبيقه العملى لدستور هؤلاء «الساسانيين» الذى وضعه بنفسه فى قصيدة طويلة أوردها الثعالبى.

وقد تمتع أبو دلف بسمعة طيبة جعلت منه نديما ومجادلا، فقد «جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس «لعضد الدولة فناخسرو» بشيراز مطايبة ومداعبة ومحاضرة ومذاكرة، نال فيها أبو دلف من أبى على الهائم.. وهنا «أعجب» فناخسرو» بقوله، وتعجب من حسن محاضرته بخصائص بلدان الشرق والغرب، وقال : «ملك – يا أبا دلف – ينادم الملوك» وأمر له بخلعة وصلة»[1].

ولم تكن هذه المكانة إلا لأنه «شاعر كثير الملح والظرف، مشحوذ المدية في الكدية، خنق التسعين فى الإطراب والاغتراب، وركوب الأسفار الصعاب، وضرب صفحة المحراب بالجراب، فى خدمة العلوم والآداب»[2].

وقد اتصل أبو دلف بالوزير الشهير «الصاحب بن عباد»، وكان «يكثر المقام عنده، ويكثر سواد غاشيته وحاشيته، ويرتفق بخدمته، ويرتزق فى جملته، ويتزود كتبه فى أسفاره، فتجرى مجرى السفاتج (الحوالات المالية) فى قضاء أوطاره. وكان الصاحب يحفظ مناكاة بنى ساسان حفظا عجيبا، ويعجبه من أبى دلف وفور حظه منها. وكانا يتجاذبان أهدابها، ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما. ولما أتحفه أبو دلف بقصيدته التى عارض بها دالية العكبرى فى المناكاة وذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم، وتنادر بإدخال الخليفة المطيع لله فى جملتهم – وقد فسرها تفسيرا شافيا كافيا – اهتزو نشط لها، وتبجح بها، وتحفظ كلها، وأجزل صلته عليها»[3].

ولعل أبادلف هو الذى أوحى لبديع الزمان الهمذانى بفكرة المقامات وبطلها أبى

---

(١) لطائف المعارف ٢٣٤ – ٢٣٩.

(٢) يتيمة الدهر ٣٤٢/٣.

(٣) يتيمة الدهر ٣٥٣/٣. وانظر : عصر الدول والامارات د. / شوقى ضيف دار المعارف، ١٩٨٣، ٦٣٩ (إيران).

الفتح، فثمة تشابه كبير بين أبى دلف وأبى الفتح، كما أن بديع الزمان روى أبياتا ثلاثة لأبى دلف على أنها من شعره ثم نسبها لأبى الفتح وهى :

ويحك هذا الزمان زور .. فلا يغرنك الغرور
زوق ومخرق وكل وأطبق .. واسرق وطلبق لمن يزور
لا تلتزم حالة ولكن .. دُرْ بالليالى كما تدور[1]

وأشهر آثار أبى دلف الشعرية قصيدته «الساسانية» التى تبلغ أبياتها – المختارة – فى اليتيمة قرابة المائتى بيت. والقصيدة طريفة، وتعد وثيقة هامة يمكن الاعتماد عليها.

خلفت رحلات أبى دلف أربعة آثار هى : كتاب «عجائب البلدان»، والحديث الشفهى بينه وبين ابن النديم صاحب الفهرست، ثم الرسالتان الأولى والثانية.

(أ) عجائب البلدان :

وهذا الكتاب منحول على أبى دلف، فليس ثمة ما يدل على وجوده وصحة نسبته إليه. والذين ذكروه لم يروا الكتاب، ولم يشيروا إلى مصادرهم التى استقوا منها هذه المعلومة.

يتحدث «بروكلمان» عن «أبى دلف مسعر بن مهلهل الخزرجى الينبوعى صاحب عجائب البلدان[2]»، ويتابعه – دون تمحيص د/ سيد النساج، فيتحدث عن أبى دلف مهلهل الشاعر فى «عجائب البلدان»[3]. بينما لم يذكره معاصراه : الثعالبى وابن النديم، ولا غيرهما. وسكتت عن ذكره كل الدراسات الدقيقة الحديثة.

(ب) رواية ابن النديم :

حيث ينقل – على لسانه – بعض الفقرات التى يرى «بروكلمان» أنها «الرواية

(١) يتيمة الدهر ٣/٣٥٤.
(٢) تاريخ الأدب العربى ٥/٢٤٥.
(٣) أدب الرحلات فى حياتنا الثقافية. مجلة العربى. يناير ١٩٨٧، ٢٣٤، وانظر الإسلام والفكر الجغرافى ١٢٧.

الصحيحة الوحيدة عن رحلته.. ومنها يتضح أن النص الذى نسبه «ياقوت» إليه، فى «معجم البلدان» منحول، قد جمع فى عصر متأخر من مصادر مختلفة»[١]. وهو حكم متسرع أثبتت الدراسات التالية خطأه. وقد قام «مينورسكى» بدراسة نصّى أبى دلف الواردين فى «الفهرست»، وتوصل إلى أنه «لا يستطيع أن يوافق نظرية «ماركفارت» التى تذهب إلى أن التقرير الحقيقى الذى ورد فى «الفهرست» يمثل الأصل الذى وضعه أبو دلف – والذى يختلف عن الرسالة الأولى التى وضعت تحت اسمه – وإلى أن الجزء المدون عن الصين – فى الفهرست – يمثل عدة نصوص من مصادر مختلفة، وإلى أن المقطع الأخير يحوى اقتباسات متنوعة من مجموعات التقارير المتداولة عن الصين، وهى مصادر ربما كانت مشاعة عامة عند الجغرافيين المسلمين ورواة العجائب»، «ونحن نرى أن المساهمة الوحيدة فى هذا الجزء المنسوب لأبى دلف كانت مرفوضة عند النديم نفسه»[٢]. والنصان لا يضيفان جديدا، بل يتشابهان فى كثير من الفقرات مع ما نقل عن التاجر سليمان الذى زار الصين قبل أبى دلف بنحو تسعين عاما. إضافة إلى أنهما مختلطان بنصوص غيره، وأن صاحب «الفهرست» يرويهما من الذاكرة. ولعل الإضافة الجيدة تتمثل فى تعبير طريف ورد فى الفقرة التالية : «وإذا تزوج الواحد منا إليهم (الصينيين) وأراد الانصراف، قيل له : «دع الأرض وخذ البذر». فإن أخذ المرأة سرا – وظهر عليه – أُغرم غرما له مبلغ قد اصطلحوا عليه، وحبس، وربما ضُرب»[٣].

وقد تتشابه بعض فقرات «الفهرست» مع الرسالة الأولى، كما يتشابه الأسلوب فى المصدرين.

(جـ، د) : الرسالة الأولى، والرسالة الثانية :

والأثران الرئيسيان لأبى دلف هما : الرسالة الأولى، والرسالة الثانية. وردت **الرسالة الأولى فى «معجم البلدان» فى نص شبه كامل قدم له ياقوت بقوله : وقرأت فى كتاب عتيق ما صورته : كتب إلينا أبودلف مسعر بن مهلهل فى ذكرما شاهده**

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٤/ ٢٤٥.

(٢) Minorsky. P.P. 8 - 9

(٣) الفهرست ٤١٤.

فى بلاد الترك والهند والصبن، قال..[1].

وبعد فترة أردف الرسالة الأولى بالرسالة الثانية التى قدم لها بقوله: «فإنى جردت لكما - يا من أنا عبدكما - أدام الله لكما العز والتأييد والقدرة والتمكين - جملة من سفرى - كان - من بخارا إلى الصين على خط الوتر، ورجوعى منها على الهند، وهو سمت قوسه، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها وسلكته من قبائلها، ولم استقص المقالة حذرا من الإطالة. ورأيت الآن تجريد رسالة شافية تجمع عامة ما شاهدته، وتحيط بأكثر ما عاينته، لينتفع به المعتبرون ويتدرب به أولو العز والطمأنية، ويثقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض»[2] أما نص الرسالة الثانية فقد فرقه ياقوت على معجمه، وأخذ عنه القزوينى (٢٤) اقتباسا من «الرسالة الثانية»، لكن مع الإشارة إلى أبى دلف فى (٧) حالات فقط. وفى كتاب «عجائب المخلوقات».. توجد أربعة اقتباسات دون الإشارة إلى الاسم. وفى المعجم الجغرافى لياقوت.. أمكن تحديد (٣٤) اقتباسا من «الرسالة الثانية»، ودراسة كراتشكوفسكى - التى حددت أيضا (٢٤) اقتباسا لا يذكر فيها الاسم - قد أوضحت الحجم الكامل لاستخدام ياقوت لهذا المؤلف»[3] وقد اتضح لمينورسكى أن نقول القزوينى محرفة عن نقول ياقوت، فوضع ثبتا بنقول ياقوت من «الرسالة الثانية» وبإزائه نقول القزوينى - المحرفة - عنه[4].

وحول الرسالتين دارت دراسات متنوعة، لكنها صبت اهتمامها على التأكد من صحة الرحلات، وصحة نسبتهما إلى أبى دلف، فطغى الاهتمام بهما كنص جغرافى عليهما كنص أدبى[5].

إطلاق عنوان «الرسالة» على ما دونه أبو دلف يمكن تفسيره على وجهين :

---

(١) معجم البلدان ٣/٤٤٠.

(٢) الرسالة الثانية. تحقيق بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف. ترجمة د/ محمد منير موسى. عالم الكتب القاهرة ١٩٧٠، ٢٩.

(٣) الرسالة الثانية، ص ١٥ ١٦.

(٤) Minorsky. P. P. 19 - 20

(٥) انظر فى هذه الدراسات ونتائجها الإيجابية والسلبية : تاريخ الأدب الجغرافى ١/٨٨ - ١٩٠، والرسالة الثانية: المقدمة.

أ – أنه أرسلهما إلى ولييه، واشتق الاسم من الفعل.

ب – أن المقصود به نمط الرسالة الذى كان سائدا فى عصره.

كان أبو دلف يعى تماما أنه يتحدث إلى عالمين، وأن نهجا خاصا مناسبا لهما يجب اتباعه. إن الخبرات الشخصية التى مرت بأبى دلف لن تفيدهما، لذا فإن حذفها، أوعدم تدوينها أصلا لن يؤثر تأثيرا يذكر، خاصة أن هذه الخبرات إذا كانت تروق لأبى دلف فقد لا تروق لولييه، بل يريان فيها حشوا لا داعى له.

ثم إن أبا دلف لا يشك فى أن ولييه سيقرآن ما كتب بعين الناقد، ومنهج قائم على الإيجاز غير المخل أقرب إلى السلامة.

إن هذه العوامل مجتمعة حددت الزوايا التى عالج منها أبو دلف موضوع رحلته.

فى الرسالة الأولى تحكم خط سير الرحلة فى المنهج المتبع، واقتصر أبو دلف على التعريف بالقبائل التى مر بديارها دون أن يفسح صدره لرواية تجاربه الشخصية إلا فى حالات قليلة، وكان واضحا أنه يقدم المعلومات تقديما مباشرا.

وفى الرسالة الثانية استقرأ أبو دلف الأوصاف السابقة للمناطق التى زارها، وركز على مالم يتناول، كى يأتى وصفه لها من زوايا لم يسبق إليها.

إن الرسالتين ليستا نتائج رحلة أو رحلتين، وإنما نتاج رحلات عديدة، وسنوات اكتسب فيها من الخبرة والمعرفة، ولاقى فيها من المواقف، وسمع ورأى – الكثير. وإذا حاول تسجيل نتاج تلك الرحلات فسيجد صعوبة لا يمكن إنكارها.

هذه المشكلة وجدت حلا سعيدا لدى أبى دلف، فإضافة إلى اعتبار شخصىّ المرسل إليهما اعتمد على ذاكرته، وفى الرسالة الأولى تدخل عامل ثالث هو: خط سير الرحلة، بيد أن تأثيره لم يقارب العاملين السابقين، خاصة أن وصفه للقبائل متشابه، ويتبع نهجا موحدا. وكذلك وصفه للبلاد التى مر بها فى رحلة العودة.

أما النهج التجميعى الذى اعتمده أبو دلف فى الرسالة الثانية فقد شارك العاملين الأولين فى تحديد ما يثبت وما يطرح. وكانت فكرة المحاور تطبيقا عمليا لهذا النهج، علماً بأن الاختيار الداخلى – فى هذه المحاور كان مبنيا على أساس كم العجب، فما كان عجيبا ذُكر، وما كان مألوفا أغفل.

خرج أبودلف وفى ذهنه تصور واضح لطبيعة المهمة التى من أجلها ساح وتجول:

الأولى: هدفها الوصول إلى الصين، ووصفها والطرق المؤدية إليها، وقد تحقق هذا الهدف.

الثانية: هدفها التجول نفسه، مع محاولة لالتقاط بعض الظواهر العجيبة أو الغريبة أو المجهولة لمواطنيه، والدافع إليها روح الرحال والعالم فى آن. وقد تحقق هذا الهدف أيضاً.

ولكن تحقق الهدفين لم يتعد القشور، فقد اهتم أبو دلف بالوصف الخارجى الظاهر العام، ولم يهتم بالداخلى الباطن الخاص.

على أرض الواقع تحقق الهدف، ولكن تسجيله للمراحل التى مر بها شابه الجفاف والفوضى أحيانا. فكان ما قام به على أرض الواقع أروع من تسجيله له.

لأن أبا دلف لم يتصور أنه سيمتع ولييه – إذا تطرق إلى شخصه – جاءت رسالتاه مفككتين، وهذه الظاهرة أوضح فى الرسالة الثانية. وكان حرص أبى دلف على رص معلوماته هو المتحكم فى شكل الرسالتين، لذا فإنهما لم تنتهيا نهاية طبيعية منطقية، وإنما انتهتا حين فرغت جعبة أبى دلف من العجائب.

مقدمة الرسالة الأولى تبدو منطقية، لأنها تمهد للرحلة وتصف أجواءها، وتقدم نبذة عن حياة أبى دلف.

بيد أنه غيب شخصيته تماما، كما جَهَّل شخصيات مرافقيه، لذا فإن أى فعل يقع لا يمكن نسبته لفرد بعينه، ولا يمكن محاسبة أحد عليه. فى ظل هذا التغييب للشخصيات وملامحها – وهى الحاملة للأحداث أصلا – لا يمكن توقع تسلسل حدثى منطقى كما لا يمكن أن يكون الحدث رابطا للشخص بالزمان والمكان.

وهنا يصبح الاستطراد أمرا طبيعيا، كما يصبح الخلط الزمانى المكانى أمرا وارداً، ويصبح الانتقال من موقف لآخر مناقض وارداً كذلك.

ولأنه لا توجد شخصيات فليس ثمة مجال للحديث عن التفسير والتحليل والتبرير.

والتماس وجود عقدة أساسية سيذهب سدى فى حال الرسالة الثانية بسبب اضطراب خط سير الرحلة، وعدم تحديد نقطة الانطلاق وهدف الرحلة.

وقد وقع أبو دلف فى الخطأ المنهجى نفسه الذى وقع فيه غيره، إذ أعلن أنه قام برحلاته وانتهى منها، ثم بدأ فى تدوينها، فوأد بذلك حماس القارئ وترقبه لما سيحدث.

ولأن الفشل في تصوير شخصية أبى دلف قد أملته ظروف خارجية – رغم أنها الشخصية الرئيسية – فليس غريبا أن تصبح بقية الشخصيات مجرد أشباح وخيالات لا وظيفة لها، ويصبح ظهور شخصية ما أو اختفاؤها رهنا بإرادة ذاكرة أبى دلف.

ترتب على ذلك أن فقد الزمان والمكان حساسيتهما، واقتصرا على القيام بدور هامشى، فالزمان يقدم بلا فنية تذكر : تقديم وتأخير وخلط واضطراب.

صحيح أن الرسالة الأولى تحاول مراعاة عامل الزمن، ولكن الشك فى صحة خط سير الرحلة يذهب كثيرا من فعاليته. أما عن الخلط فى الرسالة الثانية فحدِّث ولا حرَج.

من خلال المعلومات المتوفرة عن أبى دلف يظهر كرحال متميز، ما يكاد يستقر إلا ليتحرك، وقد أكسبه هذا التجول الدائم كماً كبيرا من المعلومات والخبرات التى أهلته لأن يكون منادما أو «ملكا ينادم الملوك». ولكن شيئا من هذا لم تتضمنه الرسالتان. وهذا لا ينفى أن ثمة مواضع يظهر فيها رحالا مدركا لطبيعة الدور الذى يؤديه.

فى لوحاته الأولى يحاول أبو دلف أن تحوي فى داخلها كل ما وعاه عن المكان الذى يمر به وعن سكانه. ولوحة كهذه لا تركز على منظر بعينه فتجود فيه، وإنما تحاول حشد أكبر عدد من المناظر، فإذا ما استوى لها ذلك شعر أبو دلف أنه قد أزاح عن صدره عبئا ثقيلا. وعندما يدرك أبو دلف أن تقديم جزئية ثمينة أفضل من تقديم لوحة عامة مفككة فإنه يجود أيما تجويد، فقبيلة «الخرلخ» – على سبيل

المثال – «قليلو الغيرة». هذا «المنظر» يمكن أن يضم إلى «مناظر» أخرى ليكوّن معها لوحة عامة – لولا أن أبا دلف ركز عدساته عليه، فالتقط له عدة صور تبرز كافة جوانبه «فهم قليلو الغيرة، تجيء ابنة الرئيس فمن دونه – أو امرأته أو أخته – إلى القوافل إذا وافت البلد، فتعرض للوجوه، فإن أعجبها إنسان أخذته إلى منزلها، وأنزلته عندها، وأحسنت إليه، وتصرف زوجها وأخاها وولدها فى حوائجه، ولم يقربه زوجها مادام من تريده عندها – إلا لحاجة يقضيها. ثم تتصرف هى ومن تختاره فى أكل وشرب وغير ذلك بعين زوجها، لا يغيره ولا ينكره»[1].

ولعل اللوحة التى رسمها لجبل «دباوند»، والأساطير التى تدور حول بعض ظواهره، وصعوده الى موضع لم يصل إليه أحد – فيما يعلم – من أفضل اللوحات التى رسمها فى الرسالتين.

وهناك عدد من الصور الطريفة التقطتها عدسة أبى دلف، وبقيت فى ذاكراته إلى أن دونها، فبسطام «دجاجها لا تأكل العذرة» (٨٧) وهناك «بلد كبير لا يخرج منه عالم، ولا خرج فيما سلف وذلك بالطبع».. (٥٤) و«شهرزور» بها «عقارب قتالة أضر من عقارب نصيبين» (٥٨). ولأهل «الصيمور» حظ من الجمال، وذلك لأن أهلها متولدون من الترك والصين، فجمالهم لذلك» (٣/ ٤٤٥). وشجر الفلفل «عناقيد، فإذا حميت الشمس عليه انطبق على العنقود عدة من ورقه لئلا يحترق، فإذا زالت الشمس زالت تلك الأوراق» (٤٤٥/٣).

وقد حاول أن يكون دقيقا فى معلوماته وأوصافه، وساعد على ذلك نهج الإيجاز الذى اتبعه، فحدد المسافة الزمنية (بالأيام والليالى) التى استغرقها فى الانتقال بين قبائل «الرسالة الأولى» وفى حالات قليلة حدد المسافات المكانية، فبين «كله» وبين مدينة الصين ثلاثمائه فرسخ» (٣/ ٤٤٥)، ثم «إنى رجعت إلى آذربيجان فى الجبل إلى «موقان» فكان مسيرى ثمانين فرسخا تحت الشجر على ساحل بحر طبرستان العظيم» (٤٥).. ومنها «إلى ديلمستان سبعة فراسخ» (٥٨). ومن أظهر صفات الرحال سؤاله الدائم عما حوله، وما الحكايات الأسطورية الشعبية التى

---

(١) معجم البلدان ٤٤٣/٣، ويلاحظ أن رقم الصفحة سيضمن المتن فيما يلى، والاستشهاد من معجم البلدان سبق برقم الجزء، ومن الرسالة الثانية إذا كان الرقم مفردا.

يوردها فى الرسالتين سوى نتاج مباشر للتساؤل الملح، فالرى بها «ماء يقال له السورين» رأيت أهلها ينكرونه ويتطيرون منه ولا يقربونه.. فسألت عن أمره، فقال لى شيخ منهم: «سبب ذلك أن السيف الذى قتل به زيد عليه السلام (؟!) غسل به» (٥٨).

و«قصر نيسابور» سألت عن أمره، فوجدت أهل البلد وهم مجتمعون على أنه من بناء بعض التبابعة وحين يصله خبر ولا يثق فيه يعلن ذلك صراحة، فقد بلغنى أن الماء الذى تحت «شبديز» «بقرميسين» إذا ضربت ألف درهم، وألقيت فيه حرارة السبك زادت ستة دراهم. ولا أدرى ما العلة فى هذا؟» (٧٢).

فى مواضع أربعة قطع وليا أبى دلف سياق رسالتيه ليعلنا أن تجنيا على الحقيقة قد وقع، وهذا التدخل قد يكون حادا، فينعتان ما قال أبو دلف بأنه «كذب صراح» (٣/ ٤٤٧)، أو يكون مترفقا كأن يعلنا أن «هذا من زيادات أبى دلف» (٣٧، ٦٥) أو «بعض هنات أبى دلف» (٧٧).

ولكنه ينفى تهمة المبالغة أو الكذب، ففى نيسابور «ريباس عظيم، ويكبر حتى تصير القصبة الواحدة منه تزن خمسين منا وأكثر، وسيستعظم هذا من قولى من يسمعه، وما قلت إلا ما شاهدت، ورأيت» (١٠). ويبدو أن الوليين نصا على بعض المبالغات كأمثلة، ولم يستوفياها، فثمة مبالغات سوى ما ذكر تتوزعها الرسالتان مثل : تلك البحيرة التى ادعى أن عمقها «يزيد على أربعة عشر «ألف ذراع» (٣٥). أو تلك الدودة التى يبلغ طولها «نحو العشرين ذراعا وأكثر فى استدارته عشرة أذرع» (٥٥ -٥٦). بل امتدت هذه المبالغات لأسلوبه : «فقصر شيرين» بها «أبنية شاهقة يكل الطرف عن تحديدها، ويضيق الفكر عن الإحاطة بها» (٦٠). وصورة شبديز «ليس صورة فى الأرض تشبهها» (٦٦). واستخدامه لأفعل التفضيل (أعظم - أعجب..) كثير.

إن أبا دلف محكوم بنهج فرضه على نفسه، وهذا النهج لا يتيح فرصة لمبالغة أو كذب لأنه نهج علمى، ولأنه سيعرض نتاجه على عالمين، لذا فإن تحرى الحقيقة مفترض فى أبى دلف، ولكن الحقيقة التى لا تستند إلى مصادر موثوق فيها لا يمكن أن تكون كذلك.

إن أبادلف كان يعتمد علي ذاكرته، وعلي معلوماته المختزنة منذ عدة سنوات، فجاء تسجيله لما في الذاكرة صورة مطابقة للتشويش والاختلاط الذين أصاباها.

إن عدم استقامة طريق الرحلات، والشك فى زيارته لبعض الأماكن التي ذكرها، ومبالغاته، ومحاولاته الدائمة لإقحام الأساطير- بعد أن يتخفف من تبعتها- كل هذا نتيجة للاعتماد على الذاكرة، بيد أنه لايعني أن الكذب أو المبالغة متعمدان.

ثمة مشكلة تعترض دارس رحلات أبي دلف؛ فالأثران الرئيسيان اللذان خلفتهما رحلاته عبارة عن رسالتين، والبنية الأساسية للرسالتين مختلفة تبعا لاختلاف الهدف، لذا فإن دراسة لبنية كل علي حدة، ثم محاولة للتوفيق بينهما، ستكون أكثر جدوي.

للوهلة الأولي يتضح أن بنية الرسالة الأولي رباعية، تتكون من :

١- مقدمة. ٢- وصف رحلة الذهاب.

٣- وصف المنطقة هدف الرحلة. ٤- وصف رحلة العودة.

في مقدمته المكثفة لم يدع أبودلف مجالا للشك في أنه قام برحلته ودوّن بعض مشاهداته، ثم عاد إلي حيث انطلق. والإضافة الجديدة في هذا الصدد أنه ربط هذه الرحلة بمسلكه في الحياة، معلنا أن الترحال أساسه، وموضحا أنه خبير في مجاله؛ لذا فالثقة متوفرة فيما سيروى. والسبب المباشر للرحلة سبب معقول وواقعي وغني بالدلالات، والثابت تاريخيا أن أبادلف كان صادقا، وأن سفارة تتحقق فيها شروط ومواصفات تلك السفارة التى صحبها أبودلف قد وصلت إلي حيث يقيم الأمير الساماني، وفاوضته، ثم عادت إلي بلادها ومعها أبودلف وصحبه. وقد اتضح «أن بعض التفاصيل المتعلقة بزيارته وجدت توكيدها فى وصف السفارة المتأخرة التي بعث بها «شاهرخ» إلي تلك البلاد» [1].

لقد راعي أبودلف أن تكون مقدمته قصيرة؛ لأنها تمهيد لما سيروي، والاقتصاد

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/١٩٠.

فيها واجب، بيد أنه كان حريصا على أن تبدو رسالته الأولي متماسكة، فكان انتقاله من المقدمة إلي وصف رحلة الذهاب يتوسطه مايمكن أن يقارب «حسن التخلص» في الشعر، فقد وافق «نصر» علي مطالب السفارة الصينية، فانتهز أبو دلف هذه العودة المظفرة والتحق بالركب، وكان هذا الرابط الذي وثق عري الصلة بين المقدمة ورحلة الذهاب، لقد عبر عن حبه للرحلات بقوله: «فاغتنمت». ورغم أن أبادلف كان ملحقا بالسفارة، وسائرا في كنفها، فإن إحساس الغريب بالخوف والقلق سيطر عليه، وقد نص علي ذلك؛ فكلما مر بقبيلة ذكر حاله وحال رفاقه: فهم في أمن ودعة، أو فى خوف وتغرير.. إلخ.

الواضح أن الهالة الرسمية للسفارة لم تجد شيئا، بل إن أعضاءها يضطرون لدفع إتاوات للحفاظ علي سلامتهم، «فالبغراج» الذين «سرنا بينهم شهرا علي خوف ووجل أدينا إليهم العشر من كل شئ كان معنا» (٤٤٢/٣). أما «الخطلخ» «فلم أر فى جميع قبائل الترك أشد شوكة منهم » (٤٤٣/٣).

ويستخلص مما قال أبودلف أنه ورفاقه لم يكونوا يحملون معهم مايكفيهم من غذاء؛ فغذاؤهم في كل قبيلة يوافق غذاءها، ويختلف عن سابقتها ولاحقتها. هذه الحاجة الملحة لضروريات الحياة أرغمتهم على مسالمة تلك القبائل ومهادنتها ما استطاعوا إلي ذلك سبيلا. وفي ظل هذه الظروف الاستثنائية أعلنت السفارة حالة الطوارئ، وتمت رحلة الذهاب التي استغرقت خمسة عشر شهرا هجريا (٤٣٩ يوما)، وكانت طريقة القياس الزمني أكثر دقة من استخدام القياس المكاني الذي لن يستطيع له ضبطا.

أثناء تلك الفترة التقط أبو دلف بعض الصور الدالة للقبائل التي مربها، وبجمع هذه الصور يتضح أن التناسق بينها منتفٍ كنتيجة لاضطراب خط سير الرحلة، وكذا الخط النفسي له ولرفاقه. ولعل الذاكرة قد لعبت دورا بارزا في إخراجها بهذا الشكل. ومالايجب نسيانه أن التعامل مع أبي دلف يقوم علي أساس أنه أديب لاكجغرافي؛ لذا فإن الدقة التي لا تتخلف في وصف مراحل الطريق غير واردة حين التعامل مع أديب، وإن كانت مطلوبة بدرجة لا تخل بتناسق الرحلة ككل.

لقد كان أبودلف ملتزما بالسير في ركاب سفارة همها الأول الوصول -بأقصي سرعة- للصين كى تبلغ ملكها بالنتائج؛ لذا فإن خطاً مستقيما هو أقصر الطرق للوصول، ولا مجال للتعريج والتوقف إلا لضرورة . ورحلة بهذا الإيقاع لا تتيح لأبي دلف الفرصة لالتقاط أنفاسه، ولا للانفلات عنها ليشبع رغبته في أن يري وأن يصف.

إن المعلومة المقدمة علي أساس خبرة شخصية لا مجال لها في هذا الجزء في الرحلة، فأبودلف الإنسان الفرد ذو الشخصية المتميزة لايظهر، بينما تصادف في هذا الجزء حديثا معتادا يمكن أن يكتبه أي فرد من أفراد السفارة.

جاء هذا الجزء نتيجة لرؤية ومعاينة مباشرة، غير معتمد على مصادر سابقة يمكن أن يكون قد قرأها، ولايعني هذا أنه لم يعتمد علي مصادر حية ناطقة؛ فقد «أخبرنا أن بلدهم عظيم مما يلي الشمال» (٤٤١/٣). ويحتاج المسافر- خاصة إذا كان سفيرا- إلي جرعة من الطمأنينة تعيد إليه رباطة جأشه حتي يؤدي مهمته الأداء الأمثل،و تكون هذه الجرعة بمثابة قنطرة بين حالتين: القلق، والطمأنينة. بدءا من «مقام الباب» يشرع أبودلف ومرافقوه في الحصول علي هذه الجرعة؛ وهو «بلد في الرمل تكون فيه حجبة الملك- وهو ملك الصين- ومنه يستأذن لمن يريد دخول الصين من قبائل الترك وغيرهم. فسرنا فيه ثلاثة أيام في ضيافة الملك، يغير لنا عند رأس كل فرسخ مركوب، ثم انتهينا إلي «وادي المقام»، فاستأذن لنا منه، وتقد منا الرسل،فأذن لنا بعد أن أقمنا بهذا الوادي- وهو أنزه بلاد الله وأحسنها- ثلاثة أيام في ضيافة الملك» (٤٤٤/٣). إن تغير الحالة النفسية جعل من وادي المقام «أنزه بلاد الله وأحسنها».

بانتهاء الجزء الثاني هذه النهاية السعيدة واستقرار الحالة النفسية يتوقع تقدم فني فى الجزء الثالث. إن هدف أبي دلف أن يري الصين وأهلها، بينما هدف أصحابه أن يقوموا بالمهمة التي كلفوا بها وحسب. لقد اتخذ من السفارة دليلا يقوده، وبعد وصوله رأي أنه قد آن له الانفصال عنها انفصالا تاما.

إذا كان أبو دلف يركز فى الجزء الثاني علي الناس دون المكان، فإنه في الجزء

الثالث يركز عليهما معا. لكن هذا المزج لايطول؛ إذ يشرع في وصف الصين مركزا علي عاصمتها منذ اللحظة الأولي لوصوله، فقد وصلها «عند المغرب» وهي مدينة عظيمة تكون مسيرة يوم، ولها ستون شارعا ينفذ كل شارع منها إلي دار الملك.. ولهم بيت عبادة عظيم، ولهم سياسة عظيمة وأحكام متقنة.. ودخلت علي ملكهم فوجدته فائقا في فنه، كاملا في رأيه ، فخاطبه الرسل بما جاءوا به من تزويجه ابنته من «نوح بن نصر» فأجابهم إلي ذلك، وأحسن إلي الرسل، وأقمنا في ضيافته حتي نجزت أمور المرأة.. وأقمت «بسندابل» مدينة الصين مدة، ألقي ملكها في الأحايين فيفاوضني في أشياء، ويسألني عن أمور من أمور بلاد الإسلام، ثم استأذنته في الانصراف، فأذن لي بعد أن أحسن إليّ ولم يبق غاية في أمري » (٤٤/٣-٤٤٥) . إن القيمة الفعلية لهذا النص تكمن في إظهاره الرغبة التحررية الكامنة في نفس أبي دلف؛ فللمرة الأولي يتحدث عن نفسه وحده، ولأول مرة تتحول «نا الفاعلين» إلي «تاء الفاعل» ، أو بتعبير آخر تتحول «النحن» إلي «الأنا» بعد أن كانت «النحن» مسيطرة.

إذا كان الهدف الرئيسي من الرحلة زيارة الصين، فلماذا لم يصفها وصفا مناسبا؟ هل منعه الملك التجول فى بلاده؟ هل منعته ظروف خاصة آنذاك؟ هل وقف عامل اللغة عائقا؟.. أسئلة تبحث عن إجابة.

لعل قلة الموارد ومصادر التمويل دفعتا أبادلف للالتحاق بالسفارة لتخفض تكاليف جولاته، بيد أنه في طريقه للعودة كفاه ملك الصين مئونة تدبير الموارد المالية اللازمة. وكان متوقعا أن يتميز الجزء الأخير من الرحلة نظرا للظروف الجديدة.

ولكن أبادلف لم يفطن إلي ذلك، فجاء وصفه علي غرار الأوصاف السابقة، ثم إنه تذكر فجأة أنه لم يقدم لقارئه كما معقولا من العجائب ، فأتحفه بعجيبة «الملتان» حيث «القبة العظمي والبد الأكبر، وهذه القبة سمكها في السماء ثلاثمائة ذراع، وطول الصنم فى جوفها مائة ذراع، وبين رأسه والقبة مائة ذراع، وبين رجليه وبين الأرض مائة ذراع، وهو معلق في جوفها لابقائمة من أسفله

يدعم عليها، ولا بعلاقة من أعلاه تمسكه».(٤٤٧/٣) ومحرر الرسالة لم يكن ليقرأ هذا الكذب الصراح- بتعبيره- ويسكت؛ لذا فإن تعليقه مدعم بمصادر مدونة وموثقة.

إن شخصية أبي دلف الإنسان ليس لها صدي في هذا الجزء الأخير، وعلي هذا فقد مرت شخصية أبى دلف بأطوار أربعة:

أ- فقد تمتعت بحضور واضح في المقدمة القصيرة

ب- ثم انحسرت عنها الأضواء في رحلة الذهاب.

جـ- ثم استعادت بعض ضوء في الجزء الثالث.

د- ثم انحسرت- مرة أخري- لتكون المحصلة النهائية تذبذبا يشي بانعدام التخطيط.

علي خلاف «الرسالة الأولي » «اختارت» «الرسالة الثانية» بنية محورية لايظهر فيه تقسيم، أو خطوط بارزة، وقد يكون هدف هذه الرحلات التي نتجت عنها الرسالة سبب ذلك. إن الدافع للقيام بهذه الجولات ذاتي، لذا فإن الخط المتعرج ليس غريبا، بل هو الطبيعي. ولا مانع من زيارة المكان الواحد أكثر من مرة إذا أضافت كل زيارة جديدا. ورغم ذلك فإن عقد هذه الرحلات لاينفرط بسبب التأكيد علي محاور معينة تستلفت انتباهه أينما حل. في البداية تأتي المقدمة، وهي تحوي معلومات مفسرة، ثم يأتي الهدف المباشر- وهو التعرف علي المعادن الطبيعية- ليكون المحور الرئيسي.

مع هذا المحور أربعة أخري هي: محور الطب، محور الآثار، محور الجغرافيا، محور الأساطير الشعبية، ويتخللها محاور هامشية.

في المقدمة يربط أبو دلف بين الرسالتين، ويعبر عن رغبته فى تجريد رسالة شافية جامعة، متحريا- فيها - الإيجاز، ويستعذب الابتداء بذكر المعادن الطبيعية وعجائبها، لأنها أعم نفعا، وأكثر اتساقا مع هدفه.

بانتهاء المقدمة الأولي تبدأ مقدمة ثانية تؤكد علي شغفه بالكيمياء، ورغبته فى التثبت من إتقانه لها؛ لذا فإن الرحيل إلي مناجم المعادن الطبيعية خير ما يحقق هدفه.

وأولي محطات الرحلة مدينة «الشيز» التي يذكر معادنها مجملة ثم يفصلها، ولا مانع من إجراء بعض تجاربه عليها ليميز النافع منها. وعلي هامش هذه المعادن لايضير ذكر بعض التجارب العملية المتعلقة بشخصه، كما لايضير ذكر بعض خصائص البلدان.

وكي يضفي علي معلوماته صبغة شرعية يستخدم تعبيرات حركية مثل: وصلت- سرت، وهدفه من ذلك: الإعلان أنه يصف عن معاينة؛ فيثق فيه من يقرأ.

وولعه بالكيمياء جنح به إلي محاولة تفسير بعض الظواهر تفسيرا كيميائيا كما فعل فى جبل «دباوند».

المحور الثاني هو محور الآثار ، فدائما ينص أبو دلف علي أن الأثر عادي أو كسروي أو إسلامي، وغالبا ما يستدعي ذكر الأثر ذكر قصته وسبب وجوده، كما يحاول وصفه بدقة كي يصدق القارئ ما ادعاه في البداية.

والمحور الجغرافي لايتمتع بحضور دائم، وإنما يتراوح بين التركيز والتكثيف، أو الإغفال التام؛ لأنه ليس هدفا فى ذاته، وإنما ما يحويه هو الهدف الأسمي لأبي دلف.

وغالبا ما يلقي أبو دلف تبعة صحة وصدق الحكايات والأساطير التي يوردها علي مجهول أو علي العامة، وكأنه يتخذ من هذا الأسلوب ذريعة للتوسع في الحكايات التي يرويها طالما أنه لن يحاسب. ولاشك في أن استخدام أبي دلف لهذه الحكايات والأساطير يهدف أساسا إلي كسر حدة الجفاف العلمي الناجم عن المحاور السابقة، ولكن أبادلف يلقي - بذلك- ظلالا كثيفة من الشك حول الثقة في معلوماته، فيكون قد أتي بنتيجة عكسية من حيث لايدري. وثمة افتراض بأن أبادلف يستخدم هذه الحكايات الأسطورية ليملأ فراغات الذاكرة.

إن هذه البنية المحورية ليست بالصلابة المرجوة، بل إن نقاط ضعف عديدة تجعلها مهددة بالانهيار في أية لحظة.

لم ينجح أبو دلف فى تحقيق الترابط بين أجزاء الرسالة لأنه لم يكن يستهدف كتابة رحلة، وإنما كان يستهدف ذكر بعض العجائب، ولكنه ادعي- نظريا وعمليا- أن وصفه نتيجة رحلات، وكان عليه أن يعي ذلك ويلتزمه، ولكنه لم يفعل.

لايغفر لأبي دلف أنه يحاول- باستخدامه لأفعال بعينها- إيجاد رابط. وكذلك لايغفر له ذكره بعض المواقف التي مر بها، والتجارب التي خاضها، لأن هذه المواقف والتجارب يمكن أن يتعرض لها غيره ممن لم يقوموا برحلات. والفارق فى تصوير الموقف هوالحالة النفسية التي يمر بها كلاهما، والتي ينطبع وصفه بها.

لو أن أبادلف استفاد من رسالته الأولي، واتبع نهجها، لجاء وصفه لهذه الرحلات أفضل فنيا.

لاشك في أن تدوين رحلات أبي دلف في شكل رسالتين إلي شخصين معينين - لهما صفات محددة- قد أثر- إلي حد كبير علي المحتوي، فجاء ملائما لإطار الرسالة ولثقافة هذين الشخصين.

ويمكن القول« بصفة قاطعة أنه قد ثبت أن روايته لاتمثل يوميات، أو وصفا للطريق، بل تم تدوينها من الذاكرة- وبعد مدة طويلة من حدوث الرحلة علي مايظهر - ومع مراعاة التسلسل التاريخي حين الكلام علي زيارته للقبائل والأماكن المختلفة. وإلي جانب ما شاهده بعيني رأسه أضاف أبودلف غير قليل مما سمع، ولم يفرق بين الاثنين»[1].

وقد أدي انتفاء الترتيب الزمني والمكاني فى الرسالتين إلي القول بأنهما قامتا «علي أساس مواد جمعها المؤلف عند قيامه بأسفار كثيرة، وفيما بعد جمعها ورتبها علي الصورة التي هي عليها»[2].

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/١٩٠.

(٢) الرسالة الثانية ٧٦

وبعد أن دوّن أبو دلف الرسالة الثانية أضاف إليها بعض الأساطير ليزيد حجمها، وليحقق بعض الإمتاع لولييه.

إن التداعي يتحكم- إلي حد كبير- في خط سير «الرسالة الثانية» فهي ليست نتاج رحلة، وإنما نتاج رحلات وجولات عديدة، وكلما ذكر أبو دلف مكانا أو حادثة أو أسطورة أو ميزة استدعي ذلك ما يوافقه أو يخالفه، لذا افتقدت الرسالة خط سير موحدا يمكن تتبعه علي خريطة. ولايقتصر هذا التداعي علي ما رآه أبو دلف بنفسه، بل يمتد إلي ما سمعه أيضا، أو ما قرأه واستقر في ذهنه فأدخله دون أن يتذكر مصدره، ولعل أبادلف كان يحرص علي أن تكون رسالته غير مرددة ولا مكررة، فجاءت خلوا من الاستشهاد بمعلومات مؤلفين سابقين عليه، وانحصرت في مصدرين: ما رآه ، وما سمعه. ثم مصدر هامشي يتمثل في قراءاته المبكرة.

لعل توغل أبي دلف في الديار الفارسية، ثم في غيرها من الديار الأعجمية قد أفقده الحاسة المرهفة تجاه لغته العربية الأصلية، فكان اتجاهه للإيجاز والاختصار رغبة في الهروب من هذا المأزق.

ليس ضد الرحال- بل في صفه- أن يتعلم عدة لغات تساعده علي التعامل المباشر مع الشعوب التي يزورها، ولكن المرفوض أن تؤثر اللغة المكتسبة علي اللغة الأصل. وهذا ما حدث مع أبي دلف. ومن الضروري الإشارة إلي أن ناسخ المخطوطة كان متواضع المعرفة بالعربية مما سبب عنتا لمحققي رسالته الثانية خفف منه أن معظمها متناثر في «معجم البلدان» وهذا ليس مبررا لإلقاء العبء علي ناسخ الرسالة وحده.

بعد استبعاد ما قد يعود إلي ضعف الناسخ، يلاحظ مايلي:

- أن أبا دلف يستخدم المقدمة بصورتها التقليدية التي يلخصها المقريزي فى قوله: «اعلم أن عادة القدماء من المعلمين أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهى: الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبة، وصحة الكتاب ، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه» [1].

(١) خطط المقريزي. دار التحرير (د.ت)١/٤

- وأن المقدمتين تحويان ثناء تقليد ياعلي الله- عز وجل- وصلاة وسلاما علي سائر أنبيائه.

- وأن السجع لايظهر إلا في مقدمتي الرسالتين، ثم يختفي تماما- إلا ما جاء عفوا.

- والسرد مفككك يتبع أسلوب القفزات. والاستطراد فيه أساس.

- واستخدامه لجمل نمطية مكررة متشابهة ملحوظ، فتكاد جملة مثل «ثم خرجنا إلي قبيلة تعرف بكذا.. فسرنا فيهم كذا يوما» تكون الصيغة الوحيدة المستعملة للانتقال من قبيلة لأخري، ولاتدخلها إلا تغييرات طفيفة مثل: « إلي قبيلة تعرف بكذا.. فسرنا بين أهلها كذا يوما».

والأفعال الغالبة في الرسالتين هي تلك الأفعال الدالة علي الحركة مثل «جاوزنا- قطعنا- سرنا- وصلنا- انتهينا- أشرفنا- عبرنا- أقمنا- دخلت- خرجت- شاهدت- رجعت».

- وقد تكرر جمل بعينها في مواضع مختلفة لتدل على الأحكام العشوائية المبالغة التي يصدرها أبودلف، فنهر «الرس» «عليه رمان عجيب لم أر في بلد من البلدان مثله، وبهاتين عجيب» (٤٨).

- «وحلوان» بها «رمان لم أر في بلد من البلاد مثله، وبها أيضا تين عجيب»(٦٢).

- وهذه الجمل التي يستخدمها أبودلف قصيرة فى غالبها.

- واستخدامه لأدوات العطف غير دقيق ، فأهل «كابل» يخالفون ملة الصين في الذباحة، ويأكلون السمك والبيض، ويقتل بعضهم بعضا، ولهم بيت عبادة (٤٤٦/٣) و«الصّيمرة» مدينة حسنة تجمع النخل والزيتون والجوز والثلج وفواكه الجبل والسهل» (٦٤).

وقد يحكي ألفاظ بعض اللغات ويفسرها؛ فحلوان «بهاتين يقال له «الشاهنجير» تفسيرها ملك التين» (٦٢) ومفردات كثيرة غريبة، لأنها تمثل مصطلحات طبية

وأسماء، معادن أو مواضع، والعودة إلي مظان شرحها في عصرها ضرورية.

وعنصر الحوار يكاد يختفي من الرسالتين سوي مواضع قليلة، واستشهاده بالقرآن الكريم يقتصر علي مقدمة الرسالة الأولي، كما يضمن آية منه في موضع آخر. والاستشهاد بالشعر يقف عند بيت واحد لأبي نواس أورده في سياق حكاية عنه.

- ٣ -

يعد المسعودي من أشهر الرحالين العرب في القرن الرابع الهجري؛ فقد كانت حياته رحيلا دائما بين بلاد وأجناس متعددة، وتجاوزت نصف القرن زمنا. وقد حرص هو نفسه علي تأكيد ذلك في مقدمات كتبه؛ ليعلل ما قد يشوبها من نقص، قال : «علي أنا نعتذر من تقصير- إن كان.. ونتنصل من إغفال- إن عرض؛ لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا، من تقاذف الأسفار، وقطع القفار، تارة علي متن البحر، وتارة علي ظهر البر، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والزابج، وتقحمنا الشرق والغرب: فتارة بأقصي خراسان، وتارة بوسط أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان، وطورا بالعراق، وطورا بالشام، فسيري في الآفاق، سري الشمس في الإشراق»[1].

وقد وجد المسعودي في نفسه شبيها بأبي تمام حين يقول:

خليفة الخضر، من يربع علي وطن ∴ في بلدة، فظهور العيس أوطاني

بالشام قومي، وبغداد الهوي، وأنا ∴ بالرقتين والفسطاط إخوانى

وقوله أيضا:

فغربت حتي لم أجد ذكر مشرق ∴ وشرقت حتي قد نسيت المغاربا

خطوب إذا لاقيتهن رددنى ∴ جريحا، كأني قد لقيت الكتائبا [2]

وهذه الرحلات لم يفرد لها المسعودى كتبا مستقلة، وإنما دس ما أفاده منها في

(١) مروج الذهب ١/١٠-١١، وانظر كذلك ما كتبه جورجي زيدان ونقله المحقق فى ص٧

(٢) التنبيه والإشراف، المسعودي. تحقيق دي خويه. ط ليدن ١٩٦٧. ص ٧

ثنايا آثاره العديدة التي ضاع معظمها، وقد بلغت اثنين وثلاثين كتابا حسب حصر قام به أحد الباحثين معتمدا علي إشارات وإرجاعات المسعودي فيما وصلنا من كتبه[١]، بينما بلغت عند باحث آخر أربعة وثلاثين كتابا[٢]. ولم يصلنا منها سوى كتابين هما:

١- مروج الذهب: وهو مخطوط كتب عام ٣٣٢ هـ ٩٤٤ م، ولكن يبدو أن المسعودي لم يرض عنه، فأضاف إليه عام ٣٤٥ هـ ٩٥٦ م؛ فقد أشار إلي تعديلات «في النسخة الأخيرة التي قررنا أمرها في هذا الوقت علي مايجب من الزيادات الكثيرة وتبديل المعاني وتغير العبارات، وهي أضعاف النسخة الأولي التى ألفناها في سنة ٣٣٢ هـ، وإنما ذكرنا ذلك لاستفاضة تلك النسخة وكثرتها فى أيدي الناس »[٣].

٢- التنبيه والإشراف: وقد ألفه المسعودي عام٣٤٥ هـ ٩٥٦ م في خلافة المطيع. وثمة جدل حول نسبة كتاب ثالث إليه هو كتاب «أخبار الزمان..» وقد حسم محققه «عبد الله الصاوي» الجدل حوله حين جزم أن كتاب المسعودي «أخبار الزمان غير هذا» [٤] الذي عثر عليه. بينما أعلن «كراتشكوفسكي» أنه «في بعض المخطوطات ينسب الكتاب للمسعودى، ولكن يستحيل عقلا أن يكون من تأليفه سواء من ناحية الموضوع أو الشكل»[٥]. وهذا اللبس مرده أن للمسعودي كتابا ضخما بالاسم نفسه.

المشهور عن كتاب «مروج الذهب» أنه كتاب في التاريخ، ولكن إذا شئنا الدقة فإن الكتاب ليس تاريخا فحسب، وإنما هو موسوعة ضمت معارف المسعودي جميعها، تلك المعارف التي حصدها أثناء رحلاته المتعددة الطويلة. صحيح أن الجزء الأكبر من الكتاب مخصص للتاريخ الذي يعني بالماضى أساسا، ولايتيح للمؤلف

---

(١)المسعودي .د / علي حسني الخربوطلي. دار المعارف ١٩٨٠ . ص ٤٢-٤٣.

(٢) التنبيه والإشراف . تحقيق عبد الله الصاوي. القاهرة ١٩٣٨ . المقدمة١٧-١٩

(٣) التنبيه والإشراف ط. ليدن ٩٧.

(٤) أخبار الزمان.. ينسب للمسعودي. تحقيق عبد الله الصاوي. دار الأندلس بيروت ١٩٨٣، ص ١١

(٥) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١٨٥/١.

مجالا لحكاية تجاربه الذاتية، غير أن المسعودي لم ينس عصره، ولم ينس شخصه، فظفرا – عصره وشخصه– بقسط من اهتمامه، وكان ذلك الربط بين الماضي والحاضر زمانا، والقريب والبعيد مكانا، والموضوع والذات منهجا– كان ذلك كله سببا في نجاح مؤلفات المسعودي والإقبال عليها.

وعلي هذا، فإن نسبة الكتاب إلي محيط الأدب أقرب إلي الدقة، خاصة أن المسعودي كان أديبا قبل كل شئ، حريصا على التأنق فى عبارته، والاستشهاد بالمأثورات الأدبية: شعرا ونثراً.

الكتاب يعتمد علي حصاد رحلات، ولكن هذا الحصاد مبعثر في جنباته، وما يمكن جمعه من إشارات إلي وجوده في أماكن معينة[1]، أو مشاهدات شخصية، أو تجارب ذاتية– قليل للغاية بالقياس إلي حجم الكتاب، إضافة إلي أن المسعودي لم يوضح خط سير رحلاته ولا تتبعه، ولم يذكر بداية رحلاته أو نهايتها، وما إذا كان قد أفاد من رحلة واحدة بعينها أو من رحلاته كلها. ولعل النسخة الأخيرة المعدلة تكون قد احتوت علي شئ من هذا كله، فتقرب من أدب الرحلة.

ورغم أن هناك إشارات زمنية فعددها قليل، منها تلك الإشارة إلي وجوده ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك في سنة أربع وثلاثمائة»[2]، وإلي وجوده في مصر حيث «رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد بن طغج، وذلك سنة ثلاثين وثلاثمائة، وسألته عن كثير من أخبار بلدهم، وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم، وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل إلي بلادهم» [3]، يضاف إلي ذلك إشاراته العديدة إلي وجوده بمصر إبان تأليف النسخة الأولي عام ٣٣٢ هـ .

بالإضافة إلي الكتب المدونة السابقة عليه، اعتمد المسعودي علي مصادر حية في إمداده بالمعلومات كما جاء فى الخبر السابق وكذلك «لم أترك ممن شاهدت من

---

(١) انظر – مثلا، ١/١٠٠، ١/٣٤٣، ١/١٦٧. (مروج الذهب)

(٢) مروج الذهب ١/٢١٠..

(٣) مروج الذهب ٢/٢٧.

التجار ممن له أدب وفهم، وممن لا فهم عنده من أرباب المراكب إلا سألته عن ذلك..»[1]. وقد «أخبرني بعض إخواننا من المسلمين ممن كان أسيرا في بلاد النصرانية..[2]، وكذلك «نمي إلي وأنا بمدينة أنطاكية والثغر الشامي أن النيل زاد في هذه السنة ثمانية عشر ذراعاً»[3]. يضاف إلي ذلك كله المصدر الرئيسي للمسعودي المتمثل في مشاهداته وتجاربه الشخصية التي يتضمنها كتابه، ومعنى هذا أنه لم يكتف بالنقل دون تمحيص، وإنما عرضه علي ما رآه بنفسه وعلمه أثناء رحلاته. ولكن .. يبدو أن معياره النقدي لم يكن دقيقا في مواضع بعينها؛ فقد أورد حكايات عديدة مغرقة في الغرابة، مما أتاح الفرصة «لابن خلدون» كي يهاجمه في أكثر من موضع من مقدمته، مع الاحتفاظ له بكثير من التقدير، ففي «كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ماهو معروف عند الأثبات، ومشهور بين الحفظة والثقات، إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم، واقتفاء سننهم في التصنيف، واتباع آثارهم»[4]. وهذه المطاعن علي المسعودي اقتصرت علي مواضع قليلة ذكرها ابن خلدون في أماكن متفرقة من كتابه، أما بقية ما كتب فكان ثقة، ولذلك استعان ياقوت بآرائه في بضعة عشر موضعا، وأعلن فى غير موضع ثقته فيه، ولم يعلق علي مايورده تعليقا يوحي بالشك في صحة معلوماته إلا في موضع واحد فقط[5].

ويكاد يكون كتاب «التنبيه والإشراف» نسخة مختصرة من كتاب «مروج الذهب» مع التوسع في بعض الموضوعات التي احتواها الأخير، أو اختصارها.

ولكن يظل الهيكل العام متشابها، باعتبار أن كلا منهما معنى أساسا بالتاريخ، يليه اهتمام بالجغرافيا باعتبارها المدخل الطبيعي لوصف تلك الأجواء التي تقع فيها أحداث التاريخ، ولكن.. يلفت النظر في تلك المقدمة الجغرافية لكتاب «التنبيه

---

(١) السابق ١/١٢٥.

(٢) نفسه ١/١٣٠.

(٣) نفسه ١/١٠٠.

(٤) مقدمة ابن خلدون ١/٢٨٣، وانظر كذلك ١/٢٩٢، ١/٣٢٩، ١/٣٣٠.

(٥) معجم البلدان ١/٣٨٥ ، وانظر كذلك ١/٥٠٣، ٢/١٣٩، ٣٣٥، ٣/٧٨، ٣/١٤٨، ٣/٤١٦، ٤/٢٨٦، ٤/٤٤٦، ٥/٣٤٠، ٥/٢١١

والإشراف»- أنها احتوت علي وصف جغرافي فلكي يتفوق علي الوصف نفسه في «مروج الذهب» مما يشي بأن المسعودي كان ينتوي أن يصب اهتمامه علي الجغرافيا بأنواعها، ولكن سرعان ما غلبه ميله إلي الإخبار، فتحول الكتاب إلي التاريخ مرة أخري.والدليل الملموس علي نيته تلك ذلك الاستعراض للمؤلفات الجغرافية السابقة عليه- فى مقابل استعراض المؤلفات التاريخية فى «مروج الذهب»، فقد «صنف أحمد بن الطيب السرخسي صاحب يعقوب بن إسحاق الكندى كتابا حسنا في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها، وكذلك أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني وزير نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد صاحب خراسان- ألف كتابا في صفة العالم وأخباره، وما فيه من العجائب والأمصار والبحار والأنهار، والأمم ومساكنهم وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الظريفة، وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه فى كتابه المعروف بالمسالك والممالك، وهو أعم هذه الكتب شهرة في خواص الناس وعوامهم في وقتنا هذا.. » [1]. ويلفت النظر كذلك تلك المقدمة الطويلة التي أوردها لبيان هدف الكتاب، ولعل قراءتها تشير إلي ذلك التباين بين ما سيحويه كتابه- وإن لم يلتزم بما جاء فيها حرفيا.

والظاهرة الواضحة في الكتاب بروز شخصية المسعودي بالقياس إلي ظهورها في كتاب «مروج الذهب»؛ فقد تدخل المسعودي تدخلا ذاتيا في مواضع متعددة ليبدي آراءه كما نص علي مشاهدته المباشرة لمواضع وحوادث بعينها، وذكر بعض ما يتعلق بشخصه، مثل أنه «جرت بيننا وبين أبي كثير ببلاد فلسطين والأردن مناظرات كثيرة فى نسخ الشرائع والفرق بين ذلك، وبين أعبدا وغير ذلك، وبين يهودا بن يوسف المعروف بابن أبي الثناء تلميذ ابن قرة الصابئ في الفلسفة والطب في الرقة من ديار مضر، وبين سعيد بن علي المعروف بابن أشليما بالرقة أيضا. وكذلك بين من شاهدنا من متكلميهم بمدينة السلام مثل يعقوب بن مردويه، ويوسف بن قيوما. وآخر من شاهدنا منهم ممن تقدم إلينا من مدينة السلام بعد الثلاثمائة إبراهيم اليهودي التستري، وكان أحذق من تأخر منهم في النظر،

(١) التنبيه والإشراف ٧٥.

وأحسنهم تصرفا فيه»[1]. ولعل في ذكره لأسماء من ناظروه ربطا لكتابه بواقعه المعاصر، ومن ثم اقترابا من الأدب.

وقد يشير المسعودي إلي اهتمامه بموضوعات معينة مثل «تنازع من سلف وخلف في البحار وأعدادها ومسافاتها وأطوالها وعروضها واتصالها وانفصالها وجزرها ومدها، وغير ذلك من أحوالها، ونحن ذاكرون أصح ما نقل وأشهره، ومبينوه، إذ كنا عنينا بذلك برهة من دهرنا، وصرفنا إليه هممنا مشاهدة وخبرا، حتي وقفنا منه على ما نظن أنه استغلق على غيرنا علمه، وغرب عليه فهمه»[2] كما يشير في غير موضوع إلي إقليمه الذي ولد فيه- بابل، ولايخلو حديثه عنه من فخر، «إذ كان به مولدنا، وفيه منشؤنا، وكنا أولي الناس بتقريظه، والإبانة عن شرفه وفضله، وإن كان أشهر من أن يحتاج فيه إلي إطناب، ولايحويه لعظمه- كتاب» [3].

ورغم هذا التوجه الذاتي، فإن الصبغة الأساسية للكتاب تظل صبغة تاريخية، تليها صبغة جغرافية واضحة، وفي هذه الأخيرة يتصف بميزة نادرة، وهي الأصالة؛ بمعني أنه لم يكن يتبع من سبقوه اتباعا أعمي، بل كان يضيف ويبتكر ويحلل وينقد، حتي أن «كرامرس» اعتبره «أعظم الجغرافيين أصالة في القرن العاشر/ الرابع الهجري»[4].

«لقد كان المسعودي أديبا قبل كل شئ، وناشرا للمعارف على منهج الجاحظ وابن الفقيه، مع ميل أكثر نحو الجدية ونحو الأسلوب القصصي، فهو قاص ماهر، وفى كتابه الذي يغلب عليه التاريخ يقابلنا أفضل تصوير للحياة الاجتماعية والثقافة فى عصر الخلافة » [5].

لقد امتلك المسعودي الأديب ناصية اللغة، فتصرف فيها كيف شاء. مسترسلا على الدوام، ولاجئا للسجع في أحوال قليلة؛ ليثبت قدرته علي استخدامه، يحكمه في هذا كله طبيعة ما يكتب، دون محاولة لإغراب أو تعقيد، بل قصد مباشر للغرض دون التفاف.

---

(١) التنبيه والإشراف ٩٩.

(٢) التنبيه والإشراف الصاوي ٤٥.

(٣) السابق ٣١.

(٤) الجغرافيا عند المسلمين ٣٩، وتاريخ الأدب الجغرافي ١٧٧/١.

(٥) تاريخ الأدب الجغرافى ١٨١/١.

لعل معظم الدراسات السابقة- والتي اعتمدت علي الرحلة- اتبعت نهجا تقليديا مألوفا، ذلك النهج المأخوذ عن الجغرافيا اليونانية في صورة ممثلها الأكثر تأثيرا في الجغرافيا العربية.. «بطلميوس».

وأهم سمات ذلك النهج تقسيم العالم إلي سبعة أقاليم، والاعتماد علي ارتباط الجغرافيا بالفلك، أو ما سمي بالجغرافيا الفلكية والجغرافيا الرياضية.

ولأن القرن الرابع الهجرى مثل قمة ازدهار الحضارة الإسلامية- ومن ثم العلوم المختلفة- فقد شهدت الدراسات الجغرافية طفرة كبيرة عمادها محاولة الاستقلال عن الجغرافيا اليونانية، وتخطيها إذا لزم الأمر، تعضد ذلك رغبة أكيدة في الابتكار والاختراع والسبق والإضافة.

اعتمادا علي كون الجغرافيا العربية جغرافيا عملية، نشأت مدرسة جديدة، قسمت العالم الإسلامي إلي عشرين إقليما طبيعيا، وشرعت في تناول كل إقليم علي حدة في محاولة لدراسته دراسة تفصيلية، تساعد علي رسم صورة صادقة للعالم.

أطلق «كراتشكوفسكي» عليها اسم: «المدرسة الكلاسيكية»، بينما أطلق عليها «كرامرس» اسم «المدرسة البلخية» أو «مدرسة البلخي الإسلامية» (١).

رءوس هذه المدرسة ثلاثة ، ظهر الارتباط فيما بينهم ظهورا لايدع مجالا لشك. أما الأول فهو: أبو زيد البلخي، والثاني: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإصطخري، وثالثهم وأكثرهم إبداعا: أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي التاجر.

حول حلقات هذه السلسلة الثلاث قامت دراسات عدة، تحاول فك رموز الصلة فيما بينهم.. الصلة فيما بينهم ثابتة، ولكن طبيعتها وحدودها وأسرارها مازالت خافية. إن هذه الدراسات جميعا جادة، غير أن نتائج معتبرة لم تحرز حتي الآن.

رائد هذه المدرسة نال شهرة كبيرة، ليس كجغرافي فحسب، ولكن كعالم

---

(١) الجغرافيا عند المسلمين٣١.

موسوعي، متعدد المعارف، متفوقا فيها. قال ياقوت: «اتفق أهل صناعة الكلام علي أن متكلمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبيدة اللطفي، وأبو زيد البلخي.. أما الجاحظ فيزيد لفظه علي معناه، وأما أبو زيد فيتوافق لفظه مع معناه» [1].

في محاولة لإلقاء الضوء علي أبي زيد أورد صاحب الفهرست عدة مواقف تبين المراحل الفكرية المتقلبة التي مر بها، وذكر أسماء كتبه فى قائمة كبيرة. وكان غريبا ألا يذكر فيها كتابه «صور الأقاليم» الذي كان أصل تلك المدرسة» [2].

هذا السهو من صاحب الفهرست لاينفي وجود الكتاب، فقد أخذ عنه كثيرون، وقدم آخرون عرضا تحليليا له، فالمقدسي أوضح أن أبا زيد «قصد بكتابه الأمثلة وصورة الأرض، بعدما قسمها علي عشرين جزءا، ثم شرح كل مثال، واختصر، ولم يذكر الأسباب المفيدة، ولا أوضح الأمور النافعة فى التفصيل والترتيب. وترك كثيرا من أمهات المدن؛ فلم يذكرها. ومادوخ البلدان، ولا وطئ الأعمال، ألا تري أن صاحب خراسان استدعاه إلى حضرته ليستعين به، فلما بلغ «جيحون» كتب إليه: إن كنت استدعيتني لما بلغك من صائب رأيي، فإن رأيي يمنعني من عبور هذا النهر. فلما قرأ كتابه أمره بالخروج إلي بلخ» [3].

واتهام المقدسي للبلخي بأنه لم يدوخ البلدان ولم يطأ الأعمال محل نظر، فالثابت أنه زار عدة أقطار، منها العراق والجزيرة العربية، مكث فى الأول ثماني سنوات. ويبدو أن كتاب أبي زيد- والذي ألف حوالي عام (٣٠٨ هـ- ٩٢٠ م) فقد مبكرا، ولذلك فإن الأخذ عنه قليل؛ حتي أن صاحب «معجم البلدان» لم ينقل عنه سوي مرة واحدة، يرجح أنها عن مصدر وسيط. والأثر الأكبر الذي تركه الكتاب كان النهج المتميز المبتكر. وإضافة مميزة أخري قدمها البلخي، تمثلت في تلك الخارطات التى زود بها كتابه، وهى بعدد أقسامه، وقد سار على النهج نفسه تلميذاه: الإصطخرى وابن حوقل؛ فزود كل منهما كتابه بعدد مماثل- معدل

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ٣٧٦/١، وانظر معجم الأدباء ٦٤/٣-٨٦ حيث يقدم ترجمة كاملة له.

(٢) الفهرست ١٥٣.

(٣) أحسن التقاسيم ٥ ومعجم الأدباء ٨٦/٣.

ومطور- كان أساسا صالحا لتكوين ما عرف بـ «أطلس الإسلام» ونظرا لأهمية هذه الخارطات أكد «كرامرس» على «وجوب دراسة المتن والخارطات جنبا إلي جنب عند مؤلفي هذه السلسلة دون أن يفصل بينهما فاصل؛ لأن المؤلفين أنفسهم لم يفصلوا بين الاثنين»[1].

وجود هذه الخارطات، وتعديلها وإصلاحها حتي تصل إلي الصورة المثلي، كان- بلا شك- في صالح الرحلة والرحالة، فقد أصبح ممكنا أن يحدد الرحال خط سيره قبل خروجه دونما خطأ كبير يكلفه مشقة ومالاً ليسا فى حسبانه. ومن ثم فقد أطلق علي هذا النوع من الكتب وخارطاتها- أحيانا- اسم «دلائل المسافرين».

وكانت وفاة أبي زيد البلخي فى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.. عن سبع أو ثمانى وثمانين سنة كما يذكر ياقوت.

- ٥ -

الذى لاشك فيه أن الإصطخري اعتمد علي كتاب أبي زيد البلخى، وأن ابن حوقل اعتمد علي الكتابين كليهما- وإن كان اعتماده على الأول أكبر- غير أنه تفوق عليهما. وكثير أولئك الذين يرون في كتاب الإصطخرى «نسخة معدلة جديدة لكتاب أبي زيد»[2]. بل إن نسبة الكتاب لأحدهما اختلطت علي خبير في الموضوع مثل ياقوت، فأخبر أنه قرأ«في الكتاب المتنازع بين أبي زيد البلخي وأبي إسحاق الإصطخري فى صفة البلدان، قال: ..»[3]. غير أن النص المنقول ها هنا- وهو عن أحد القرامطة- موجود فى كتاب الإصطخري بألفاظ مقاربة. يؤكد هذا الاختلاف في الألفاظ علي أن الكتاب كتب غير مرة فقد «أنهي أول مسودة له وأبو زيد على قيد الحياة، وذلك حوالي عام (٣١٨-٣٢١ هـ= ٩٣٠-٩٣٣م)، غير أن كتابه قد انتشر في الشرق- بوجه خاص- علي هيئة طوامير ترتفع إلي

(١) تاريخ الأدب الجغرافي ١ /١٩٧، وانظر في أبي زيد وكتابه أيضا: الإمتاع والمؤانسة ٢٦/١، ١٥/٢، ٣٨٩/٢ وخريدة العجائب٣، وتاريخ الأدب العربي ٢٤٦/٤، والجغرافيا العربية ٨١.

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية ٢٥٦/٢، والجغرافيا العربية ٨٢، وانظر أحسن التقاسيم ص ٥

(٣) معجم البلدان ١٦٦/٢ ، والمسالك والممالك ٩٠ (قارن بينهما).

المسودة التي عملت حوالى (٣٤٠هـ = ٩٥٠ م) »[١]. وجدير بالذكر أن كتاب الإصطخري ترجم إلى الفارسية أكثر من مرة، كما ترجم إلي التركية. ومصادر الكتاب يمكن حصرها فى ثلاثة[٢]:

١- التجربة والمعاينة الشخصية الناتجة عن رحلاته الكثيرة.

٢- الاعتماد علي المصادر المدونة ككتاب البلخي. وقيل إن كتابه يحوي كثيرا من المادة السابقة عليه.

٣- الاعتماد علي المصادر الحية، وذلك بسؤال أهل الإقليم الذي يكتب عنه، أو من لهم معرفة به.

غير أن المصدر الأول يعد أهمها، وفي هذا الصدد تتعدد الإشارات التي تدل علي أنه زار:

الجزيرة العربية (ص٢٤)، والشام)٣٥)، ومصر (٤٢). وكثيرا من بلاد المشرق (٤٢، ٦٣، ١٢٣) والعراق (٥٧، ٦٠) وبلاد ما وراء النهر وخاصة بخاري (١٦٢، ١٦٤).

وسر أهمية هذا المصدر أنه أتاح للإصطخري التعرف المباشر علي المناطق موضوع الوصف والبحث، وكذلك التأكد من صحة أو خطأ السابقين عليه في مجاله.

وتبدو بعض الملامح الأساسية في نهج «المدرسة القديمة» من خلال كتاب الإصطخري الذي :

١- يقسم العالم إلي عشرين إقليما.

٢- يخص كل إقليم بخريطة تتصل اتصالا وثيقا بما يكتب عنه.

٣- الاقتصار علي وصف العالم الإسلامي- كما ادعي، وإن لم يلتزم بهذا الشرط بدقة.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي ١٩٩/١.

(٢) انظر في هذه المصادر الثلاثة: المسالك والممالك ١٩، ٢٤، ٣٥، ٤٢، ٦٤، ١٦٢.. إلخ.

٤- ذكر كل ما يتصل بالإقليم ، وذلك عن طريق المصادر الثلاثة السابقة.

٥- التدخل الشخصي المباشر، وحكاية بعض المواقف الخاصة كلما أمكن ذلك.

وقد وضع الإصطخري- بنفسه- دستور تلك المدرسة في مقدمة كتابه فقال: «ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض علي الممالك، وقصدت منها بلاد الإسلام، بتفصيل مدنها، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها. ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض، بل جعلت كل قطعة أفردتها مصورة كي تحكي موضع ذلك الإقليم ثم ذكر ما يحيط به من الأماكن، وما في أضعافه من المدن والبقاع المشهورة، والبحار والأنهار، وما يحتاج إلي معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم، من غير أن استقصيت ذلك كراهة الإطالة التي تؤدي إلي ملال من قرأه، ولأن الغرض من كتابي هذا تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمته. أما ذكر مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها والمسافات، وسائر ما أنا ذاكره، فقد يوجد فى الأخبار، ولايتعذر علي من أراد تقصي شئ من ذلك من أهل كل بلد. فلذلك تجوزنا فى ذكر المسافات والمدن وسائر ما سنذكره.. ففصلت بلاد الإسلام عشرين إقليما، وابتدأت بديار العرب، فجعلتها إقليما لأن فيها الكعبة ومكة أم القري، وهي واسطة هذه الأقاليم. ثم أتبعت ديار العرب ببحر فارس لأنه يكتنف أكثر ديار العرب، ثم ذكرت المغرب حتي انتهيت إلى مصر فذكرتها، ثم ذكرت الشام، ثم بحر الروم ، ثم الجزيرة، ثم العراق ثم خوزستان، ثم فارس، ثم كرمان، ثم المنصورة وما يتصل بها من بلاد السند والهند والإسلام، ثم آذربيجان وما يتصل بها ثم كور الجبل ، ثم الديلم، ثم بحر الخزر، ثم المفازة التي بين فارس وخراسان ثم سجستان وما يتصل بها، ثم خراسان ثم ما وراء النهر»[١].

وثمة ملاحظات منهجية يمكن إضافتها إلي ماقاله الإصطخرى:

(أ) أنه يعتبر التقدم الحضارى شرطا أساسا لتضمين إقليم بعينه فى كتابه؛ ولذا فإنه تغاضى عن وصف «بلد السودان فى المغرب، والبجة والزنج ومن فى أعراضهم من الأمم؛ لأن انتظام الملك بالديانات والآداب والحكم، وتقويم

(١) المسالك والممالك ١٥.

العمارات بالسياسة المستقيمة. وهؤلاء مهملون لهذه الخصال، ولاحظٌ لهم فى شيء من ذلك، فيستحقون به إفراد ممالكهم»[1].

(ب) وفى كل إقليم تتصدر الخارطة، ثم يليها وصف عام للإقليم وخصائصه، ينتهى بذكر المسافات والطرق -غير أنه يخالف ذلك النهج فى عدة مواضع؛ ففى مصر الجزيرة يقدم المسافات على الوصف العام. وفى وصفه لإقليم فارس -الذى ينتمى إليه- يتوسع على غير المعتاد، بحيث يقارب حجم وصفه لهذا الإقليم وصفه للأقاليم العربية جميعا، كما يحظى وصفه لإقليمّى خوارزم وخراسان باهتمامه.

(جـ) كما يلاحظ أن وصفه للأقاليم الفارسية يستأثر بأكثر من ثلاثة أرباع الكتاب، وفى هذا دليل على أن خبرة الإصطخرى ببلاد الفرس أفضل من خبرة ابن حوقل، وخبرة ابن حوقل ببلاد العرب أفضل من خبرة الإصطخرى، وهذا الجانب قد يفيد كثيرا فى دراسة الكتابين معا، وتحديد أيهما الآخذ عن الآخر فى موضع بعينه.

(د) وينص الإصطخرى -دوما- على كون المدينة قديمة أو أزلية -أى نشأت قبل ظهور الإسلام، أو محدثة - أى أنشأها المسلمون. والأمر نفسه يلاحظ عند ابن حوقل.

(هـ) وهو ينزه كتابه عن كل سوء؛ فيرفض ذكر بعض العجائب الخارجة عن المألوف حتى لايُتهم، كما يرفض ذكر السوءات الأخلاقية لسكان أقاليم بعينها.

(و) وفى وصفه العام للأقاليم الإسلامية يُلاحظ أنه بدأ من الغرب متجها نحو الشرق، غير أن هذا النهج لم يتبع فى موضعين: ديار العرب وبحر فارس. وقد ذكر سبب ذلك فى حينه: أما تجاوز الأول -أعنى ديار العرب- فسببه أن «القبلة بها، ومكة فيها، وهى أم القرى وبلد العرب وأوطانهم التى لم يشركهم

(١) نفسه ١٦.

فى سكناها غيرهم»[1].. أما بحر فارس -ويشمل كل ما يحيط بشبه الجزيرة العربية -فيذكر فى غير موضعه لأنه «يشتمل على أكثر حدودها -أى ديار العرب، ويتصل بديار العرب منه، وبسائر بلدان الإسلام»[2].

(ز) وفى تقسيمه للأقاليم لايعتمد التقسيمات السياسية القائمة بل يعتمد التقسيمات الطبيعية؛ ولذلك فإن بعض تقسيماته توشك أن تكون مبتكرة، وأن تكون خاضعة لهواه، فقد «ضممنا إلى سجستان ما يتصل بها من ظهر الغور كله إلى الهند، وجعلنا ديار خلج فى حدود كابل ووخان.. وضممنا قومس إلى نواحى جبال الديلم مع جرجان وطبرستان والرى وقزوين وما يتصل بهما، وجعلنا ذلك كله إقليما واحدا. وضممنا الختل إلى ما وراء النهر، لأن مدينتها وراء النهر، وهى أقرب إلى بخارى منها إلى مدن خراسان»[3] ولعل فى تلك التقسيمات المقترحة دليلا على معرفة جيدة وشخصية بتلك البلاد.

(ح) ويبدو التزامه بوصف «دار الإسلام» دون «دار الكفر» هشا، بل إنه يلتمس حججا واهية ليصف بلادا رآها أو سمع بها، وكأنه يصعب عليه ألا يزود قارئه بما جمع من مادة علمية، فالغور - يقول الإصطخرى - «دار كفر، وإنما ذكرناه فى الإسلام لأن به مسلمين. وهى جبال عامرة ذات عيون وبساتين وأنهار، وهى خصيبة منيعة، وفى أوائلهم - مما يلى المشرق - قوم يظهرون الإسلام وليسوا بمسلمين»[4] وهو منطق هش، يمكن أن تتحول به جميع البلاد إلى «دار الإسلام».

(ط) وهو لا يتورع عن عقد مقارنات من طراز «فضائل البلدان ومساوئها »وهى مقارنات لا تقوم على أساس مقبول فى أحيان كثيرة[5].

(ى) ومما يحمد له أن استطراداته قليلة للغاية، وأن أغلبها قد يكون ضروريا فى موضعه، فلا يسبب خللا واضحا فى البناء العام.

---

(١) المسالك والممالك ٢٠.
(٢) نفسه ٢٩.
(٣) المسالك والممالك ١٤٥.
(٤) نفسه ١٥٣.
(٥) انظر : ١٥، ١٦٤.

(ك) كما يحمد له أنه يعلن تشككه فيما ينقل إذا كان يستحق ذلك، كما ينص على كون المعلومة منقولة عن غيره، سواء من مصادر حية أو مدونة[1].

(ل) ونهجه العام أن يجمل، ثم يفصل، لذا فإنه يقدم وصفا عاما للأقاليم كافة فى بداية الكتاب، ثم يبدأ فى التفصيل، وقد يفعل الشيء نفسه فى وصفه للأقاليم، فيجمل ثم يقول : «سأفصل كل ما ذكرته مجملا، فأبتدئ بذكر ما فى كل كورة من النواحى التى تشتمل على القرى.. ثم أتبع ذلك بتفصيل كل ما ذكرته مجملا إن شاء الله»[2].

عكس الكتاب بعض سمات شخصية الإصطخرى، مما ينفى عنه كونه كتابا علميا جافا. بل يمكن تصنيفه على أنه «أدب جغرافى».

ومن خلال الإشارات الشخصية الواردة فى الكتاب يمكن استخلاص أن :

– الإصطخرى كان شيعيا، وهو – فى هذا المقام – لا يصيبه التعصب لمذهبه بالتحيز ضد غيره من المذاهب السائدة آنذاك. ويبدو أن هذا التسامح كان أصيلا فى شخص الإصطخرى، الذى لا يميل إلى مبالغة أو مغالاة أو فخر بنفسه.

– وهو يتمتع بروح الباحث العلمى الذى لا يدخر وسعا فى سبيل الكشف عن حقيقة ظاهرة، أو التأكد من صحة معلومة، أو التعليل لنهج اتبعه.

– ويبدو – مع ذلك – تقيا صادقا، يتورع عن ذكر السوءات، وينسب كل معلومة إلى مصدرها – إن وجد. كما يحاول تفادى ذكر العجائب التى تخرج بكتابه عن الجادة. وقد كان مدحه لأهل السغد وبلاد ما وراء النهر لكرمهم واحتفائهم بالغرباء – كان دليلا على تقديره لكل ما يمت للأخلاق العالية بصلة.

– ودقته فى الملاحظة دعمتها عدة مواقف طريفة، لعل أكثرها طرافة أن «ببصنى تعمل الستور التى تحمل إلى الآفاق، المكتوب عليها «عمل بصنى»، وقد تعمل ببرذون وكليوان وغيرهما من تلك المدن ستور يكتب عليها «بصنى» وتدلس فى ستور بصنى[3]». وهو ما يشبه الغش التجارى بتقليد المنتجات العالمية لعصرنا فى

(١) انظر : ١٥، ١٦٤.
(٢) انظر المسالك والممالك ٦٨.
(٣) المسالك والممالك ٥٤، وانظر كذلك ٥٨.

بلاد بعينها. ولاحظ فى «مرو» أن «اليابس من فواكهها من الزبيب وغير ذلك يفضل على سائر الأماكن، وإنما يذكر من «هراة» الكثرة وأنه يكثر فى الآفاق. فأما الطعم والجودة فإن المروزى يفضله. ومن صحة فواكههم أن البطيخ يقدد ويحمل إلى الآفاق، ولم أعلم هذا يمكن ببلد غيره»[1]، ولأهل «جيرفت» سنة حسنة، لا يرفعون من تمورهم ما أسقطه الريح، فيأخذه غير أربابه وربما كثرت الرياح، فيصير إلى الضعفاء من التقاطهم إياها أكثر مما يصير للأرباب»[2].

وقد لاحظ « أمارى » أنه « يذكر القليل عن صقلية، ولكن ما أورده جوهرى للغاية. ويصدق هذا القول على ما ذكره عن جزيرة القلال بالبحر الأبيض المتوسط، وهى ليست بعيدة عن سواحل فرنسا. ومعلوماته عن الصقالبة – رغم تناثرها وقلتها – لا تخلو من بعض القيمة ».[3] ولعل تلك الدقة هى التى دفعت بياقوت إلى النقل عن الاصطخرى أكثر من ثمانين نقلا، دون تشكيك فى أحدها.

– ويدل اتساع مجال أسفاره ورحلاته على حب أكيد للسفر والرحلة، ومن ثم التجربة والمشاهدة والتسجيل، ثم التأليف والتفسير. وليس أدل على اتساع نطاق رحلاته من تلك الخارطات التى لم يكن ليستطيع لها صنعا لولا ذلك.

– وهذه الرحلات التى قام بها تمت فى فترات متباعدة، ولم تتبع خط سير موحدا، لذا لم يكن متوقعا أن يخرج الكتاب فى شكل رحلة ذات مراحل متتالية ومحددة، كما أن هدف التقديم العلمى المباشر منع ذلك أيضا.

– وبقايا من آثار هذه الرحلات سكنت فى ذاكرة الإصطخرى، ولم تغادرها، فطعم بها كتابه، وكان عملها مزدوجا: تقدم المتعة، كما تقدم المعرفة.

أما ما كان علميا صرفا يعتمد على لغة الأرقام، فقد عول الإصطخرى فيه على ما دونه بنفسه أثناء رحلاته، كما استعان بالمصادر الجغرافية السابقة عليه.

---

(١) نفسه ٦٤.

(٢) المسالك والممالك ٩٩.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى ١/٢٠٠.

وبسبب هذا النهج العلمى جاء أسلوب الإصطخرى ملتزما بالسمات العامة للنثر العلمى الذى كان قد وصل إلى درجة النضج، ولا يدعم قول القائلين بأن كتاب الإصطخرى كُتب أولا بالفارسية، ثم ترجم إلى العربية – دليل مقبول.

غير أن سمات بعينها يختص بها الإصطخرى، وقد لوحظت فيمن تلوه :

– فهو يستخدم الفعل «كان» بكثرة، واستخدامه له يتخذ صيغا متعددة فهو ناقص تارة، وتام أخرى، وزائد ثالثة. وقد يسبب هذا اضطرابا فى الجملة : فجبل المذيخرة « منيع، لا يسلك إلا من طريق واحد، حتى تغلب عليه القرمطى الذى – كان – خرج باليمن يعرف بمحمد بن الفضل»[1] وخارج «القيروان أبنية كانت معسكر آل الأغلب، ومقامهم بها كان»[2]. وهذا الاضطراب يطول جملا لا تستخدم فيها «كان». ولذلك فإن كثيرا منها يبدو الترابط بين أجزائها مفقودا.

كما يميل إلى توكيد الضمير المتصل بآخر، كقوله : «وقد ركبته –أنا – من عسكر مكرم إلى الأهواز»[3]، وكذلك «هو جبل رأيته – أنا – من وسط روذة الرى»[4].

ورغم عدم ميل الإصطخرى للمبالغة فإنه قد يضطر إليها تحت وطأة الإعجاب أو الحكم المتسرع، وهو فى ذلك ليس بدعا بين الرحالة والجغرافيين العرب، ولذلك فإن «أفعل التفضيل» المطلق – لا المقارن – تستخدم لديه بكثرة وإفراط ، فعماد «ممالك الأرض أربعة، فأعمرها وأكثرها خيرا وأحسنها استقامة فى السياسة، وتقويم العمارات فيها، مملكة إيرا نشهر[5]» وكور «فارس خمس : فأوسعها عرضة وأكثرها مدنا ونواحى كورة إصطخر»[6].

وفيما عدا الجمل المضطربة أو المبالغة يسود أسلوب الإصطخرى الطابع العلمى

---

(١) المسالك والممالك ٢٦.
(٢) نفسه ٣٤.
(٣) نفسه ٦٣.
(٤) نفسه ١٢٣.
(٥) المسالك والممالك ١٥.
(٦) نفسه ٦٧.

العملى، يقصد إلى المعنى بأقل قدر ممكن من الألفاظ المعبرة بدقة، كما يخلو – إلا قليلا – من محاولة استعراض المعلومات والمعارف الخارجة عن الموضوع، فهو لم يذكر بيت شعر واحدا، كما لم يجد السجع السائد – آنذاك – إلى كتابه سبيلا، إلا ما جاء عفوا.

وقد يبلغ وصفه – الذى يسبغ عليه من عاطفته – حدا مقبولا من الجودة، ففى معرض حديثه عن جمال بلاد ما وراء النهر يؤكد على « نزهة ما وراء النهر، فإنى لم أر – ولا بلغنى فى الإسلام – بلدا أحسن خارجا من «بخارى»، لأنك إذا علوت قلعتها لم يقع بصرك من جميع النواحى إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء، فكأن السماء بها مكبة خضراء مكبوبة على بساط أخضر تلوح القصور فيما بينها كالنوائر فيها، وأراضي ضياعهم مقومة بالاستواء كأنها مرآة»[1].

وهذا النوع من الوصف الذاتى الداخلى قليل فى كتاب االإصطخرى. وقد يبلغ وصفه حدا من السهولة يقربه من العامية، ووصفه لكرم أهل السُّغد شاهد على ذلك.

ويستخدم – أحيانا – تعبيرات طريفة، مثل أن غوطة دمشق ليست متصلة الخضرة، لذلك فإنك «إذا كنت بدمشق ترى بعينك على فرسخ وأقل جبالا قرعاء من النبات والشجر»[2].

وقد يذكر بعض المفـــردات الأعجمـية، ويترجمـها للعربية مثل «مكان يعرف بورغسر وتفسيره: رأس السكر»[3].

ولأن الإصطخرى هو المتحدث الوحيد فى كتابه، فإن الحوار الكاشف لم يستخدم.

---

(١) نفسه ١٦٤.

(٢) المسالك والممالك ١٦٥.

(٣) نفسه ١٧٨:

-٦-

يعتبر ابن حوقل ركنا هاما من أركان المدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا، إذ استوعب أهم مبادئها، ثم أضاف ما استطاع إليها، اعتمادا على رحلاته التى استغرقت أكثر من ثلاثين عاما.

ولد ابن حوقل مع مطلع القرن الرابع الهجرى، وعاش نحو ثلاثة أرباع القرن، وكان موطنه الأصلى نصيبين التى احتفظ لها بكل حب وتقدير ـ رغم أسفاره المتعددة التى اقتضتها مهنته، فقد كان تاجرا رحالا. وقد أشار إلى ذلك فى غير موضع – إن تصريحا وإن تلميحا، كما أشار إلى ذلك ياقوت حين كان ينقل عن «ابن حوقل التاجر الموصلى وكان قد طوف البلاد، وكتب ما شاهده»[١].

ويستفاد من الإشارات الزمنية الواردة فى الكتاب أنه بدأ رحلاته «من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة[٢] وأنه دخل المغرب عام ٣٣٦ (٧١) وكان فى الأندلس عام ٣٣٧ (١٠٨)، وفى سجلماسة عام ٣٤٠ (٩٩)، وفى البصرة عام ٣٥٠ (٢٩٠) وعام ٣٥٨ كذلك (٢٣٩)، كما زار نصيبين والموصل وواسط والحيرة وجرجان فى العام نفسه (٢١٤، ٢١٧، ٢٣٩، ٣٤٠، ٣٩٣) وكان فى الباميان سنة ٣٥٥ (٤٥٠) وفى مصر سنة ٣٦٠ (٤١٦). وأخيرا كان فى صقلية فى يوم الجمعة لعشر خلون من رجب عام ٣٦٢ (١٢٨)، إلى غير ذلك، مما يدل على اتساع نطاق أسفاره، وشمولها كل أقاليم العالم الإسلامى تقريبا.

وقد فطن «بارتولد» إلى أن ابن حوقل «عزم على أن يعطى فى نهاية عمله ملخصا كاملا عن رحلاته، ولكنه لم ينفذ ما انتواه»[٣]. وربما تكون يد الضياع قد عبثت بمثل هذه القطعة، لأن ما أورده ابن حوقل يدل على أنه كتبها فعلا، إذ يقول : «وقد ذكرت فى آخر كتابى هذا كيف تعاورتنى الأسفار، واقتطعتنى فى البر دون البحر، الى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه فى طولها، وقطعت وتر

(١) معجم البلدان ٢٦٢/١.

(٢) صورة الأرض ٣، ويلاحظ أن رقم الصفحة سيضمن المتن فيما يلى.

(٣) Hudud al - Clam . P. 20.

الشمس على ظهرها»[1].

لقد عكست مادة الكتاب الثرية بعض ملامح شخصية ابن حوقل، فهو مسلم غيور على دينه ومقدساته، حتى إنه كان يشارك فى الحملات الحربية، مثل تلك الغزوة التى انطلقت من «ميافارقين» (١٩٦)، كما كان ينعى بشدة على الحكام المسلمين تخاذلهم أمام الهجمات الشرسة للروم آنذاك، فقد «ألح الروم فى هذا الوقت على سواحل الشام ونواحى مصر، فهم يختطفون مراكبهم من كل أوب، ويأخذونها من كل جهة، ولا غياث ولا ناصر، ومن للمسلمين بناظر؟! والملك فيهم هامل شاغر، والملك جماع مناع، والعالم يسرق ولا يشبع ويفتي بالباطل على ما يبلغ، ولا يخاف معادا ولا مرجعا، والفقيه ذئب أدرع، فى كل بلية يشرع، وبكل ريح يسرى ويقلع، والتاجر فاجر مسقع، ولا يعاف حراما ولا مطمعا والديار والأعشار بيد الأعداء مستسلمة، والأملاك مغتصبة مصطلمة، والأرض من أربابها إلى الله متظلمة» (٢٠٥). وهذه النغمة تتكرر فى مواضع عديدة (انظر ١٧٧، ١٨٨، ١٩٨، ٢٢٢، ٢٢٣).

وفى إحدى أطرف قصصه يبدو اعتزازه بكرامته جليا، فقد أرسله أحد أصدقائه برسالة إلى أحد كبار الأثرياء فى البصرة، فقرأ الكتاب «ثم أقبل على بعض خدمه، وذكر مراكبه وحاله، فوثبت غيظا، وتركته وأنا لا أبصر ما بين يدى من شدة ما نالنى وداخلنى بإعراضه عنى»(٢٩٠).

ويبدو موقفه من القوى السياسية والدينية لعصره متضاربا، فبينما يشن هجوما شديدا على الحمدانيين - بعد أن كان قد مدحهم وأهدى إليهم النسخة الأولى من الكتاب - وعلى حكام الثغور الإسلامية، وعلى الأندلسيين - نجده يمدح السامانيين (٤٦٩، ٤٧٢)، ويطنب فى مدح الفاطميين (٧١، ٧٩، ١٠٩، ١١٣)، وهو لا يميل للأخيرين باعتبارهم قوة سياسية فحسب، بل باعتبارهم مذهبا دينيا كذلك، ولذا فإنه يهاجم سواهم كالمالكية (٩١، ٩٢) كما يهاجم الخوارج (٧٠، ٩٥، ٢٢٥). ولم يقتصر تأييده للفاطميين على القول، بل أتبعه بالفعل، ومن «الطريف فى هذا الشأن موقفه من أمويى الأندلس، فهو يقدم لنا فى مصنفه

صورة من أدق الصور عن الأندلس فى العصر الأموى. ويرى «دوزى» فى ابن حوقل جاسوسا للفاطميين بلا ريب، غير أن «ليفى بروفنسال» – وهو أحد كبار الخبراء... فى إسبانيا الإسلامية – لا يرى فيه هذا الرأى القاطع، إنما هو فى رأيه – على أى حال – من عملاء العباسيين أو الفاطميين. والأسباب التى دفعت إلى هذه التهمة تبدو من طيات كتابه، إذ يمكن إبصار عواطفه الفاطمية فى أنه كان من أوائل من قدموا.. صورة سلبية عن شجاعة أهل الأندلس وعن نظامهم الحربى والإدارى، مبديا دهشته لعجزه عن إدراك السر فى احتفاظهم باستقلالهم حتى ذلك الوقت دون أن يخضعوا لحاكم من حكام المشرق الإسلامى، ويمكن أن يؤخذ قوله بأنه يرى ذلك أمرا سهلا بمثابة إيعاز للفاطميين أو العباسيين بالتدخل»[1].

إن ولاء ابن حوقل للفاطميين ثابت، تؤكده عباراته التى تغرى الفاطميين بالاستيلاء على الأندلس، فمن «أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم ونقص عقولهم، وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال، وعلم موالينا – عليهم السلام – بمحلها فى نفسها، ومقدارجباياتها، ومواقع نعمها ولذتها» (١٠٨ – ١٠٩).

فى نصين نفيسين ذكر ابن حوقل أسباب تأليفه كتابه، ولعل أبرز ما يمكن استنتاجه منهما أنه كان محبا للسفر الدائم، تدفعه إلى ذلك عوامل ذاتية ضاغطة، وأخرى موضوعية. وقد أنتج ذلك كله أثرا قيما نفخر به، هو كتابه: «صورة الأرض».

النص الأول جاء في مقدمة الكتاب، ويبيّن فيه دوافعه للسفر، والثانى يضيف تلك الإشارة الهامة لمقابلته للإصطخرى، وهى تلك المقابلة التى نتج عنها خلط شديد فى مادة كتابيهما، وتطابقهما فى مواضع كثيرة ،حتى أصبح كل واحد منهما مصدرا يعتمد عليه فى تحقيق نص كتاب الآخر.

جاءفى النص الأول أنه «كان مما حضنى على تأليفه، وحثنى على تصنيفه،

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ٢٠٤.

وجذبنى إلى رسمه – أنى لم أزل فى حال الصبوة شغفا بقراءة كتب المسالك، ومتطلعا إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق، وتباينهم فى المذاهب والطرائق، وكمية وقوع ذلك فى الهمم والرسوم والمعارف والعلوم، والخصوص والعموم، وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة، والتواليف الشريفة الموصوفة: فلم أقرأ فى المسالك كتابا مقنعا، وما رأيت فيه رسما متبعا، فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب، واستنطاقى فيه وجوها من القول والخطاب. وأعاننى عليه تواصل السفر، وانزعاجى عن وطنى، مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر. والشهوة لبلوغ الوطر».

وجاء فى النص الثانى أنه «كان أكثر ما حدانى على هذا الكتاب، وتأليفه على هذه الصورة – أنى كنت فى حال الحداثة شغفا بأخبار البلدان، والوقوف على حال الأمصار، كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحى ووكلاءالتجار، وقرأة الكتب المؤلفة فيها... ولقيت أبا اسحاق الإصطخرى، وقد صور هذه الصورة لأرض السند فخلطها، وصور فارس فجودها، وكنت قد صورت آذربيجان التى فى هذه الصفحة فاستحسنها، والجزيرة فاستجادها، وأخرج التى لمصر فاسدة، وللمغرب أكثرها خطأ، وقال قد نظرت فى مولدك وأثرك، وأنا أسألك إصلاح كتابى هذا» (٣٢٩).

وكتاب «صورة الأرض» كتب أكثر من مرة، فقد «رفع ابن حوقل المسودة الأولى من تصنيفه إلى سيف الدولة الحمدانى (ت ٣٥٦ = ٩٦٧م)، وترجع المسودة الثانية إلى حوالى عام (٣٦٧= ٩٧٧)، ويميل «كرامرس» إلى القول بوجود ثلاث مسودات للكتاب، مع فوارق يسيرة بين الأولى والثالثة»[1].

ولأن ابن حوقل يمثل إحدى حلقات سلسلة المدرسة الكلاسيكية، فقد كان طبيعيا أن يعتنق المفهوم نفسه الذى وضعه أبو زيد البلخى محددا به ماهية هذا العلم حين قال فى موضعين – وبألفاظ متقاربة : «ليس فى جمع هذه الأطراف بعضها إلى بعض، ولا فى تفريقها – كبير درك، غير الإبانة عما فى أعراضها من المدن والأنهار» (٤٣١، ٤٧٥). وقد اعتنق المقدسى هذا المذهب نفسه، واقتنع بهذا

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ٢٠١.

المفهوم، بل أورد الألفاظ نفسها، مع فارق بسيط هو : أن المقدسى نسب العبارة لأبى زيد البلخى[1]، بينما لم ينسبها ابن حوقل لأحد. ومعنى هذا أن ابن حوقل يصف واقعا حقيقيا، ولا يقدم «رؤية» أو محاولة لإعادة تشكيل الواقع، رغبة فى إفادة القارئ وتعليمه.

باعتبار أن الهدف الذى من أجله وضع ابن حوقل كتابه هدف علمى، فقد حاول أن يسلك السبيل العلمى لتحقيقه معتمدا على مصادر متنوعة مثلت مادة عمله. ويمكن القول : إن دراسة ابن حوقل مرت بمرحلتين أساسيتين هما :

١ – الدراسة المكتبية.

٢ – الدراسة الميدانية.

فيما يتعلق بالدراسة المكتبية يلاحظ أن ابن حوقل لم يستوف قراءة كل المصادر السابقة عليه، كما اعتمد على مصادر عامة لا يمكن الركون إليها. وهو فى تعامله مع هذه المصادر : إما أن ينقل عنها، ولا يحيل إليها، أو ينتقد أصحابها. والجانب الأخير هو أبرز الجوانب فى علاقته بهذه المصادر.

فى غير موضع وجه ابن حوقل انتقاداته للسابقين عليه بشكل عام، وأوضح أن الهدف من كتابه هو سد النقص الذى تعانى منه الثقافة العربية فى عصره فى هذا المجال، كما ادعى أن الهدف من كتابه «تصوير هذه الأقاليم التى لم يذكرها أحد علمته ممن شاهدها. فأما ذكر مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها والمسافات فيها، وبعض ما أنا ذاكره، فقد يوجد فى الأخبار متفرقا، ولا يتعذر على من أراد تقصى شيئ من ذلك من سافرة أهل كل بلد»(٤).

وقد تعرض اثنان من السابقين لانتقادات ابن حوقل فى غير موضع، بينما حظى ثلاثة برضاه، وآخرون حازوا رضاه بطريق غير مباشر، إذ أحال القراء لكتبهم : اللذان تعرضا لنقده هما الجيهانى وابن خرداذبه، فقد «كان لا يفارقنى كتاب ابن حزداذبه وكتاب الجيهانى وتذكرة أبى الفرج قدامة بن جعفر، وإذا الكتابان الأولان قد لزمنى أن استغفر الله من حملهما، واشتغالى بهما عن ما يلزمنى من

توخى العلوم النافعة والسنن الواجبة (٣٢٩، ٥). أما من تعرضوا لمدحه فهم : قدامة بن جعفر (٣٣٠)، وأبو حنيفة الدينورى (٣٦٣)، والجاحظ (٣٧٢)، يضاف إليهم الإصطخرى (١٤، ٣٢، ٣٢٩). وأحال على ما كتبه الكعبى وقدامة (٤٥٣)، كما أحال على الكتب ذات الطابع العام، فللبصرة «كتاب يعرف بكتاب البصرة، ألفه عمر بن شبة قبل كتاب الكوفة ومكة يغنى عن ذكر شيء من أوصافها، وهذه الكتب موجودة فى جميع الأماكن» (٢٣٨)، ولمصر «وأعمالها غير كتاب مؤلف مستوفى» (١٤٣)، ومن مصادره المدونة أيضا ما وجده مدونا «بخط أبى النصر الوراق» (١٣٥)، وفى «كتاب أخبار الأطباء» (١٢٤)، و«بعض الخطوط القديمة» (٢٣٤)، و«بعض الكتب» (٣٦٧)، و«ابن دريد» (٢٧١، ٣٧٦).

أما الدراسة الميدانية فتشمل مصدرين مهمين :

١ – ما نقله عن غيره شفاها.

٢ – ما عاينه بنفسه.

فيما يتعلق بما نقله عن غيره، يحسب لابن حوقل حرصه على نسبة كل خبر لصاحبه، من باب الأمانة العلمية والتخلص من التبعة، وترواح الإسناد بين : ذكر اسم صاحب الخبر صراحة، أو تجهيله تماما، أو ذكره بصفة ما.

لقد ذكر ابن حوقل أنه سمع أخبارا ضمنها كتابه من «إبراهيم بن البتكين» (١٤، ١٥، ١٦٣)، وأبى الحسين على بن أحمد الجزرى (٢٦)، وأبى القاسم البصرى (٢٩)، وأبى المنيع كثير بن أحمد الجعدى الأسوانى (٥١) وأبى على بن أبى سعيد (٩٥)، وأبى الحسن بن أبى على الداعى (٩٦)، وزيادة الله نصر بن عبد الله (٩٧)، وأبى اسحاق إبراهيم بن عبد الله المعروف بفرغ شغله (١٠)، وأبى الحارث (١٢٥)، وأبى عبد الله محمد بن عيسى (١٢٧)، وعبد الله بن محمد (١٧٥) وأبى الحسين محمد بن عبد الوهاب التل موزنى (١٩٥)، والرافع وياعرا بايا (٢١٨) وأبى بكر الدمشقى (٤٩٤).

وفى مواضع عديدة يصدر الخبر بقوله: «بلغنى» (٣٢، ٣٩، ٣٨) و«أخبرنى غير إنسان» (٣٣٤، ٣٥، ١٢٦، ١٩٧، ٣١٥)، كما يصدر أخبارا أخرى بقوله: «سمعت ـ حدثنى زعم بعض أصحابنا ـ ذكر قوم» (٢٧، ١١٢، ١٢٤، ١٥٦، ١٩٧، ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٤٠، ٤٣٤).

وفيما يتعلق بما عاينه بنفسه، يمكن القول بأن جل ما أورده فى كتابه، هو عن مشاهدة مباشرة، وأن ما سكت عن إسناده يندرج تحت هذا الإطار، وقد أكد على ذلك فى مواضع كثيرة، مثل قوله «وسآتى بما رأيته منهم معاينة ومشاهدة» (٥١)، و«سائر ما وصلته من أخباره وقصصته من أنبائه وآثاره فبالمشاهدة منى لذلك والمعاينة لأشكالها» (١٧٠)، و«هذه جملة أحوال المدن المشهورة، والمراسى والقرى المعروفة على نحو بحر المغرب من حد برقة إلى البحر المحيط، مما انتهيت إليه وأدركته بالعيان، أو أخذته عمن نشأ فيه»(٨٣).

حين المقارنة بين الدراسة المكتبية والدراسة الميدانية، ترجح كفة الأخيرة، باعتبارها المصدر الأساس الذى اعتمد عليه ابن حوقل. أما الدراسة المكتبية فقد أمكن تحديد مواضع الاستفادة بها، وهى قليلة بالقياس إلى الدراسة الميدانية. وهذا يعنى أن الرحلة كانت المصدر الأول الذى اعتمد عليه ابن حوقل فى تأليف كتابه، ومن ثم يصبح جديرا بالوصف الذى أسبغه عليه «كراموس» فى دائرة المعارف الإسلامية إذ نعته بأنه «رحالة عربى وجغرافى مشهور»[١].

ويبدوا أن ابن حوقل كان معنيا بتدوين كل ما يصل إليه علمه مما يفيد فى موضوعه، منذ بداية خروجه عام ٣٣١، والدليل على ذلك هذا التوثيق الرائع لبداية رحلاته، كما يدل عليه أيضا ذكر أسماء مصادره أو صفاتهم فى أغلب الأحوال، مما يعنى اهتماما بالخبر والمخبر معا. بل إنه كان يسأل مصدره أكثر من مرة عن الخبر الواحد ـ فى أزمنة مختلفة ـ حتى يتأكد من صحته، يقول: «وكنت إذا لقيت الرجل الذى أظنه صادقا، وأخا له بما أسأله عنه خبيرا، فأجد ـ عند إعادة الخبر الذى أعتقد فيه صدقه، وقد حفظت نسقه وتأملت طرقه ووصفه ـ أكثر ذلك

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١/١٤٥.

باطلا، وأرى الحاكى بأكثر ما حكاه جاهلا، ثم أعاوده الخبر الذى ألتمسه منه، والذكر ليسمع الذى استوصفته، وأطالع معه ما صدر مع غيره فى ذلك بعد روية، وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية، فتتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات، وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحسه فى نفسى بالقوة على الأسفار وركوب الأخطار ومحبة تصوير المدن»(٣٢٩).

ومما يدل على تدوينه معلوماته أثناء رحلاته ذلك العدد الهائل من أسماء القبائل البربرية التى ذكرها (١٠٤ ـ ١٠٧)، وأسماء أبواب مدينة «بنكث» فى بلاد ما وراء النهر (٥٠٨) وغير ذلك.

وتبعا للمُهْدَى إليه جاء المضمون ملائما، فحينما قدم الكتاب للأمير الحمدانى خلا ـ بالطبع ـ من الهجوم على الحمدانيين، ومن مدح غيرهم. بينما النسخة الأخيرة مكتظة بالهجوم على الحمدانيين (١١٢، ١١٧، ١٨٠، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٦) والثناء على غيرهم، كما أضاف إليها الكثير مما استجد من أحداث ومعلومات؛ فكثير من التواريخ التى يوردها متأخر عن الفترة التى ألف فيها النسخة الأولى، وهذا يعنى أنه كان يصف وصفا آنيا حيا حسب واقعه المعاصر، ومن ثم يكون الكتاب ممثلا صادقا للعصر الذى عاش فيه.

لقد راعى ابن حوقل الأصول المتعارف عليها فى التأليف لعصره، كما التزم بالأصول التى قامت عليها المدرسة الكلاسيكية؛ فبنى كتابه عليها، باعتبارها هيكلا يحتاج إلى ملء فراغاته، ثم كتب مقدمة الكتاب القصيرة والهامة فى آن»(٦).

وبعد أن جمع مادته وحدد نهجه الذى سيلتزمه، وأخرج كتابه مزودا بالخرائط التقليدية ـ عرضه على الجغرافى المعروف أبى إسحاق الإصطخرى، ثم ـ يقول ابن حوقل ـ «رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب وإصلاحه وتصويره أجمعه وإيضاحه ـ من غير أن ألم بتذكرة أبى الفرج، وإن كانت حقا بأجمعها، وصدقا من سائر جهاتها، وقد كان يجب أن أذكر منهاطرفا فى هذا الكتاب، لكنى استقبحت الاستكثار بما تعب فيه سواى، ونصب فيه غيرى»(٣٣٠).

النهج الذى اتبعه ابن حوقل يقتفى ـ فى خطوطه العامة ـ أثر المدرسة

الكلاسيكية العربية، ولكنه يختلف عنه فى طبيعة المعلومات التى أوردها فى المحتوى، إذ يميزه عن سابقيه اتساع نطاق رحلاته الميدانية، مما أتاح له فرصة جمع أكبر قدر صادق من المعلومات، كما أتاح الفرصة لتكوين انطباعات شخصية تجعل لعمله شخصية مميزة، وطابعا خاصا به.

واتساقا مع نهج المدرسة السابقة اقتصر ابن حوقل على وصف «دار «الإسلام»، وقسمها تقسيما طبيعيا إلى عشرين إقليما، متبعا الدستور الذى وضعه لنفسه حين قال: «وقد فصلت بلاد الإسلام إقليما إقليما، وصقعا صقعا، وكورة كورة لكل عمل، وبدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليما واحدا، لأن الكعبة فيها، ومكة أم القرى ـ وهى واسطة هذه الأقاليم عندى ـ وأتبعت ديار العرب ـ بعد أن رسمت جميع ما تشتمل عليه من الجبال والرمال والطرق، وما يجاورها من الأنهار المنصبة إلى بحر فارس ـ ببحر فارس، لأنه يحتف بأكثر ديارها.. ثم ذكرت المغرب... ثم ذكرت مصر... ثم صورت نهر جيحون»[1] (٥ ـ٧).

لقد استهل ابن حوقل كتابه بالإهداء، ثم بالظروف التى أحاطت ببداية أسفاره، وصولا إلى النهج الذى سيتبعه، ثم شرع يرسم خريطة ـ أو صورة ـ لكل إقليم، ويسير على هداها، واقتضى ذلك أن يبدأ برسم صورة للعالم كله، ثم انتقل إلى تحديد مملكة الإسلام والمعمور والمغمور، والممالك المشهورة فى عصره، ويشبه وصف الممالك المشهورة طراز الفضائل الذى كان سائدا آنذاك.

ولم ينس ابن حوقل أن يصف لمعاصريه أهم الطرق التى يمكن سلوكها، فأفرد للمسافات مكانا فى كل إقليم، وصدر به الحديث عن الإقليم أو ختمه به، متخذا وحدات قياس تناسب كل إقليم، ومحصيا كل ما يمكن حصره من طرق توصل إلى إقليم أو بلد ما (٤٠)، وواصفا الطريق كما سلكه ـ بصورة طبيعية أو مقلوبا (٩٠).

إن ابن حوقل كان متحليا بالروح العلمى الحق، فبدا كتابه متماسكا، واضح المعالم، كما بدت أمانته العلمية فى غير موضع، إضافة إلى تواضعه الشديد فى

(١) قارن بمقدمة الإصطخرى فى المسالك والممالك ١٥.

مثل قوله: «ولما كان العلم بكليته بإزاء أبناء البشر بكليتهم، فلن يبلغ الإنسان الواحد منه بجزئيته إلا قدر ما اقتضته سعادته، (١٤٣)، وانظر كذلك (٧، ٦٦، ١٠٧، ١٢٠، ١٥٦، ١٧٠، ٢٤٢، ٢٥٦، ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٦، ٣٥٥، ٤٠٣، ٤٢٥).

وإذا سلك ابن حوقل مسلكا جديدا يشتم منه رائحة الخلاف مع المدرسة التى ينتمى إليها، أو يحتاج إلى تعليل ـ فإنه لا يتوانى عن تقديم ما يبرر هذا المسلك، فقد علل للبدء بديار العرب (١٨)، ولفصل سيناء عنها (١٩) ولإفراد بحر فارس (٤٣)، وإفراد الأندلس (٦١) بالوصف. كما لم يتوان عن إضافة كل جديد مفيد ـ حتى لو كان خارجا بعض الشيء عن هدفه؛ فقد وصف ديار البجة وصفا جغرافيا، وزاد عليه ما وصل إلى علمه من تاريخه السابق والمعاصر له، وكان ـ بذلك ـ أول عربى يتحدث عنهم بالتفصيل. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن البربر الذين توغل فى ديارهم، وتعرف على عاداتهم وتقاليدهم عن كثب، ووصفهم وصفا فريدا متميزا. ولعل وصفه لصقلية يعد من أفضل ما كتب الرحالون والجغرافيون العرب عنها فى ذلك العصر، إنه وصف يمكن الاعتماد عليه فى التعرف على أحوالها، كما نبصر فيه توجها أدبيا خالصا، بحيث يمكن القول دون تردد لو أن ابن حوقل وصف البلاد التى زارها كما وصف صقلية لتحول كتابه إلى كتاب فى «أدب الرحلة» من الطراز الأول.

إن ابن حوقل لم يسلم من بعض الانحياز لإقليمه الأكبر ـ العراق، فبالغ فى مدحه (٢٣٤)، وادعى أنه سيوجز فى وصفه؛ لأنه مشهور معروف (٢٤٧، ٢٦٣)، كما أولى مسقط رأسه ـ نصيبين ـ اهتماما كبيرا، فأرخ لها تأريخا طويلا، وصب جام غضبه على الحمدانيين لتسببهم فى تدهورها، وهو سلوك ليس غريبا على ابن حوقل الذى ما انفك ينعى على الحكام المسلمين تقاعسهم وتخاذلهم أمام أعدائهم، وطغيانهم وتجبرهم على مواطنيهم، وكانت بلدته المثال والنموذج الحى للسلوك الأخير.

لقد حاول ـ فى أغلب الأحيان ـ أن يكون دقيقا، فاعتمد على الإحصاءات

التى تتسم بشىء من المبالغة أحيانا (٢٥، ٥٠، ٥٨، ١٢٠، ٤٠٨)، كما تتبع الظاهرة الواحدة فى أكثر من مكان وزمان، كظاهرة اتصال الجبال (٣٥، ١٦٨)، وحرص على الوصف الآنى الذى ينسب إلى عصره (٣١، ٦٨، ٧٠، ١٠٤، ١٧٦، ٢٣٠، ٢٨٩، ٣٣٧، ٣٥٤، ٣٨٢، ٨٦٤، ٤٦٩، ٤٩٢)، بل إن ناسخ المخطوطة التى اعتمد عليها المحقق علق على ما أورده ابن حوقل واصفا الحال فى عصره، فى أكثر من عشرين موضعا، وقد أضاف المحقق هذه التعليقات بخط صغير مميز.

وموقفه من العجائب والغرائب علمى، فقد نزه كتابه عن ذكر مالا يعقل، فاليمن «يحكى عن الغيلان بها من الأعجوبة مالا أستحسن حكايته، لأن المنكر لما لا يعلم أعذر من المقر بما يجهل» (٣٩). وحاول ـ كذلك ـ أن يتأكد من صحة ما يروى له؛ فقد سمع عن سمكة «العروس» حكاية غريبة، و«رأيتها أنا وجماعة من ذوى التحصيل فشهدوا بكذب هذه الحكاية»(١٥٧)، وهو مالم يفعله غيره ممن رووا الحكاية نفسها [١].

ويحسب له أيضا أنه ناقش المعتقدات الجغرافية المستقرة فى عصره مناقشة علمية، وانتهى إلى نقدها؛ مثل أن الأرض مصورة بصورة طائر (٢٠٩)، وأن الدنيا مسيرة خمسمائة عام (٥٢٧)، وأن الأقاليم سبعة [٢]. إن هذا التوجه العلمى الراشد لقى كل تقدير من قبل صاحب «معجم البلدان» فاستشهد بآرائه فى أكثر من عشرين موضعا، مع تعليقات توحى بالثقة فيما يروى. كما أعجب إعجابا شديدا بالفصل الخاص بصقلية، فنقله، وصدر له بقوله: «وجدت لابن حوقل التاجر فصلا فى صفة صقلية ذكرته على وجهه، ففيه مستمتع المناظر فى هذا الكتاب»[٢]، ويبدو أنه نقل عن نص مختصر للكتاب.

---

(١) مروج الذهب ٣٥٦/١، المسالك والممالك للإصطخرى، ٤١، وأحسن التقاسيم ٢٠٨ والإفادة والاعتبار للبغدادى ط بيروت ٤٣.

(٢) معجم البلدان ٤١٨/٣، وانظر كذلك ١/ ١٠، ١/ ١٤٤، ١/ ١٦٢، ١/ ١٧٠، ١/ ١٩٥. ١/ ١٩٨، ١/ ٢٢٥، ٢٣٧/١، ٢/ ٢٦٣، ١/ ٢٧٧، ١/ ٢٧٣، ٤٤٣/١، ١/ ٣٦٨، ١/ ٣٦٩، ١/ ٤٤٠، ١/ ٤٨٣، ٢/ ٣٣٩، ٤/ ٤٣، ٤/ ٣٢٤، ٤/ ٣٤٨، ٤/ ٣٩٢، ٤/ ٤٤٥.

ابن حوقل تاجر فى الأساس، وهو مع ذلك ينحو نحو العلماء تارة، والأدباء تارة أخرى. وقد انعكس هذا التوجه على كتابه، فظهر اهتمامه بالنواحى التجارية والاقتصادية جليا، كما ظهر توجهه العلمى بوضوح حين بنى كتابه على أسس محكمة، وحين قصد ـ فى أغلب الأحيان ـ إلى الهدف التعليمى مباشرة، ناصا على الإيجاز من أجل الإفادة السريعة للقارىء (٢٩٤/٤، ٢٩٥، ٣٤٦، ٤٥٣)، ومعرضا عن الميل للتأنق الشكلى ـ الذى كان سائدا فى عصره، أو حتى للحديث عن شخصه وتجاربه الذاتية التى ـ وإن لم نعدمها فى الكتاب ـ لا تتوازن مع التوجه الموضوعى العلمى السائد فيه.

يمكن القول: إن خصائص النثر العلمى تتوفر فيما كتب ابن حوقل، ولكن هذا لا يعنى أن كتابه خلو من كل تأنق، فثمة مواضع يحرص فيها على السجع ـ الذى يكون مقبولا حينا، وممجوجا أحيانا أخرى ـ خاصة عندما يبالغ فى مدح الفاطميين، إذ تجتمع مبالغتان: مبالغة لفظية ومبالغة معنوية. ولكن هذه المواضع السجعية قليلة على أى حال (انظر ٢٧، ٧١، ٧٢، ٩٩، ١٢١، ١٤٦، ٢٠٥، ٢١٢، ٢١٦، ٢٢٥، ٤٩٢).

إن ابن حوقل قلما ينفعل، ولكنه فى تلك المواقف ينتج وصفا أدبيا رائعا، والمثل البارز على هذا فصله الرائع عن صقلية وأهلها (١١٨ ـ ١٣١)، وما كتبه عن أهل «ما وراء النهر» وجمال بلادهم (٤٦٤، ٤٦٥، ٤٧٢). وفى مواضع بعينها يحاول إضفاء الطابع الأدبى بالاستشهاد بشعر مقحم فى أغلب الأحيان، وتكاد تكون النماذج التى يوردها مكررة فى كل كتب الأدب الجغرافى العربى السابقة عليه (٢٨، ١٥١، ١٩٨، ٢٢٠، ٢٣٤، ٤٣١). كما يستشهد بالقرآن الكريم فى بضع عشرة حالة، وبالحديث الشريف فى أربعة مواضع.

أما عادته، فهى: أن يصف الأماكن وصفا خارجيا محايدا، لا يسبغ عليه من نفسه، مع التركيز دوما على الأماكن دون ساكنيها، وإذا ركز على السكان فإن حديثه عنهم يكتسى طابعا عاما دون تخصيص، كأن يتحدث عن خصائصهم اللغوية (١٤، ٢٨٩، ٣٧٦، ٣٤٧، ٣٩٣، ٤٨١).

وفى المواضع النادرة التى ذكر فيها أشخاصا بعينهم فى سياق حكايات يزودنا بإشارات عديدة يمكن على أساسها تكوين انطباع عن شخصيته، كحكاية المليونير السيرافى (٢٩٠) وحكاية مجلس المناظرة الذى عقد لإجباره على قبول ضيافة أهل بلدة له (٣٤٠)، وما كتبه عن الصقليين وغبائهم، وعن معلميهم وحمقهم. يضاف إلى ذلك ذكره لأسماء أشخاص بعينهم فى معرض المدح أو الذم و«منهم جابر المنوفى ـ لارضى الله عنه»(١٣٨)، وأحد كرام فارس (٢٩٣) والتاجر الذى كان يبيع مليون شاة فى اليوم (٣٥٢)، أو لصفاتهم، فقد «رأيت حمالا ـ فى خوزستان ـ عبر وعلى رأسه وقرثقيل ـ أو على ظهره ـ وهو يساير حمالا آخر على حاله، وهما يتنازعان فى التأويل وحقائق الكلام غير مكترثين بما عليهما فى جنب ما خطر لهما»(٢٥٥).

لأن ابن حوقل يكتب فى موضوع علمى، فقد استخدم المصطلحات المناسبة له، ويلاحظ استخدامه لمصطلحى «الصرود والجروم» بكثرة (٨٧)، وميله ـ فى بعض الأحيان ـ إلى تفسير مصطلحاته أو الأسماء الأعجمية التى يوردها (١٧٣، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٢٢، ٤٣٥، ٤٤٨)، كما يلاحظ استخدامه لمصطلحات معينة بمعنى خاص به مثل: أبواب المال التى تعنى مصادر الدخل (٣٠١) أو مصاقبة بمعنى مجاورة (٧٣)، أو تخطف بمعنى تقلع (٤٢).

والظاهرة اللافتة أنه كثيراً ما يجر ضمير الغائب بحرف الجر: الكاف مثل: كهو ـ كهى ـ كهما (٦٧، ٧٤، ١٣٥، ٢٢٩، ٢٤٤، ٣٦٩، ٤٥١، ٤٧٧، ٤٨٩). كما يستخدم «كان» بإسراف شديد، خاصة كان الزائدة، مما يسبب اضطرابا فى الجملة (٢٧، ٤١، ٥٩، ١٦٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٩٥، ٣٤٣، ٣٦٠). يضاف إلى ذلك أن الجملة تفقد سلاستها فى مواضع كثيرة، ويصبح فهمها صعبا إلا بعد إعادة ترتيبها، أو حذف لفظة زائدة دخلتها. وقد يعود ذلك إلى الناسخ أو المحقق، أو إلى ابن حوقل نفسه (٤٠، ٢٥).

رغم ذلك فإن لغة كتاب ابن حوقل مميزة ـ إذا قورنت بغيرها ـ حسبما يرى «آدم متز» فقد «جاءت كتب المقدسى وابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى،

فكانت هى الذروة التى بلغها العرب فى وصف البلدان، وكلاهما قد سافر حتى دوخ الممالك، وحمله تيار الأسفار، واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين... وكلاهما قد انتهت إليه اللغة أكثر انصقالا ودقة، وأسلس قيادا مما وجدها المؤلفون المتقدمون، وقد استعملاها استعمال من يملك ناصيتها، وإن كان ابن حوقل ـ فى ذلك ـ أقل إظهارا لتكلف الجمال والطرافة من المقدسى»[1].

-٧-

حين يجمع الباحثون ـ من عرب ومستعربين ـ على أن عملا بعينه مميز، فإن إجماعهم يكتسى أهمية بالغة.

وحين يؤيد البحث العلمى الموضوعى ذلك الإجماع، فإن هذا العمل يصبح أكثر قيمة وأدعى للاحترام.

من الأعمال القليلة التى نالت هذا الشرف كتاب «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم «للمقدسى» لقد نال ـ ومازال ينال ـ إعجاب وتقدير كل من تعاملوا معه، نظرا لما تميز به من جدة وطرافة.

المتسعرب «اشبر نجر» يرى فى المقدسى «أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة» ويراه المستعرب الهولندى «كرامرس» أكثر الجغرافيين العرب أصالة، ويرى فى المصنف واحدا من أكثر المصنفات الجغرافية فى الأدب العربى قيمة»[2].

ولا يملك الروسى «كراتشكوفسكى» إلا الاعتراف له «بالأصالة والطرافة وقوة الملاحظة»، ويعتبره «جغرافيا عظيما، وواحداً من كبار الكتاب العرب قاطبة»[3].

و«لى سترنج» يعد «كتابه أعظم من كل ما صنعه البلدانيون العرب، وأكثرها أصالة»[4] وهو عند د/ شوقى ضيف «طرفة حقيقة» [5] وشريط سينمائى، يعرض

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٢/ ١٠ – ١٢.
(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى. كراتشكوفكسى ١/ ٢٠٨.
(٣) السابق ٢١٥.
(٤) بلدان الخلافة الشرقية ٢٨.
(٥) الرحلات د. شوقى ضيف ١٦.

علينا سكان العالم بكل خصائصهم وصفاتهم. والكتاب ـ أخيرا ـ «نموذج للكتاب العلمى المرتب المنظم المبوب المقسم»[1] والرأى للدكتور نقولا زيادة.

بيد أن هذا الإطراء لم يخل من بعض غمز، باعتبار أن شخصية المقدسى الحاضرة فى كتابه حضورا ملحوظا ـ بل غاليا ـ تنم عن عجب شديد، وهذه ملاحظة صحيحة، غير أن أصحابها لم يجنحوا للمبالغة فيها، حتى لا يتهموا بالتحامل، وللحق: إن شخصية المقدسى ممثلة تمثيلا جيدا فى كتابه، ولا يستطيع قارىء المضى فى أنحاء الكتاب إلا إذا لاحظ إلحاح المقدسى السافر على أن يظهر نفسه شخصية فريدة مميزة؛ إن بالتصريح وإن بالتلميح. وهو ما أغضب ناسخ إحدى مخطوطاته، فتدخل ثلاث مرات ليسبه سبا قبيحا. وربما كان هذا الحضور الدائم سببا فى انعدام أية إشارة لحياة المقدسى فى كتب التراجم المعاصرة والتالية له، اكتفاء بالمعلومات التى أوردها عن نفسه، أو لأن إنتاجه العلمى المعروف لم يتعد كتابه هذا. وهذه ظاهرة يشترك فيها معظم الرحالة الجغرافيين السابقين والتالين للمقدسى.

إن الباحث حين يعتمد على الكتاب فى التعرف على مسيرة حياته، سيجد فيه الكفاية، وسيصادف إشارات غزيرة عنها، منها صريح الدلالة، ومنها خفيها.

على سبيل المثال: لم يصرح المقدسى ـ أو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر البناء الشامى المقدسى البشارى ـ بالعام الذى ولد فيه، ولكن ذكر أنه ألف كتابه عام ٣٧٥هـ= ٩٨٥م، بعد أن بلغ سن الأربعين، ومن ثم يكون مولده عام ٣٣٥هـ = ٩٤٦م، وللتحقق من صحة هذا الفرض نذكر أن المقدسى أشار إلى أنه أقام فى بيت المقدس عشرين عاما قبل رحيله، ثم تصادفنا أول إشارة زمنية إبان حجه عام ٣٥٦هـ= ٩٦٦م، فيكون مولده فى العام السابق نفسه، أو قريبا منه جدا.

وعليه، يصبح مؤكدا أنه قضى عشرين عاما راحلا، قبل أن يضع المسودة الأولى لكتابه ـ تلك التى أهداها للأمير السامانى حينئذ ـ وقضى ثلاثة وعشرين عاما قبل

(١) الجغرافيا والرحلات عند العرب د/ نقولا زيادة ٥٠.

أن يهدى المسودة الثانية للخليفة الفاطمى، والجدير بالذكر هنا أنه أجرى تعديلات عديدة على المسودة الثانية، مضيفا ومعدلا وحاذفا فى المضمون، معيدا صياغة عباراته فى مواضع عديدة، مراعيا ـ فى ذلك كله ـ أن الكتاب مهدى للخليفة الفاطمى.

ولد المقدسى فى بيت المقدس لأب مقدسى، وأم ذات أصول فارسية، وكان لهذا الاختلاط العرقى أثره فى توجهاته.

عائلة الأب كانت مشهورة بالعمل فى مجال البناء، ويروى المقدسى بكثير من الفخر بعض إنجازات جده،كما تدل أسئلته المتوالية لعمه فى هذا المجال على أنه كانت منتسبا إليه. وإشارة وحيدة إلى والده تدعم هذا الرأى. كما أن ميول المقدسى اتضحت جلية حين كان يناقش بنائى الأماكن التى يزورها فى مسائل فنية.

ويبدو أن مجال البناء كان العامل المشترك الذى جمع أباه وأمه، فقد كانت الأم من عائلة مشهورة بالعمل فى هذا المجال أيضا، ولم تكن هذه العائلة مقدسية الأصل، بل كانت من بلدة بيار التابعة لقومس فى إقليم الديلم كما يسميه.

ثمة مواضع كثيرة يذكر فيها خاله عبد الله الشوا، وجده أبا الطيب الشوا، كما يطنب فى وصف بيار وأهلها ـ حيث مكث أربعة أشهر ـ معللا هذا الإطناب بأن أخواله منها، وأن كل قومسى تراه ببيت المقدس فهو منها. ويتلقى المقدسى تعليمه المعتاد، ويؤثر التخصص فى الفقه، ليكون القاضى أبو الحسين القزوينى أول إمام ـ أو شيخ ـ يتلقى العلم على يديه، مدعيا أنه إنما يناظر على طريقته، ناصا على بعض آرائه واجتهاداته فى أربعة مواضع. ولما كان المقدسى رجلا قد أراد التفقه ـ على حد قوله ـ فقد فتش فى المذاهب السائدة آنذاك، وبعد طول نظر، قرر أن يتفقه للمذهب الحنفى، وأن يقرأ لعبد الله بن عامر. وقد كان لهذا التوجه أثره الخطير فى تحديد مسار حياة المقدسى، كما ظهر هذا الأثر جليا فى كتابه.

إن المقدسى كفانا مئونة وصف شخصيته، إذ أورد فى غير موضع آراء معاصريه فيه، وهذه الآراء ـ جميعا ـ ترسم صورة مثالية، وتصوره عالما خبيرا مجتهدا، وقد كان الأفضل حذفها، ولكن الشعور بتضخم الذات أبى عليه إلا أن يتركها، بل زاد ما يعتقد فى نفسه عليها.

أحد معاصريه يقول له: «لقد دققت النظر يا مقدسى، واحتطت لنفسك[1]»، وآخر يقول: «لله درك يا أبا عبد الله، ما أحسن ما أتيت به!» (١٤٣)، وآخرون تعجبوا من أقواله، وكان حكمهم: «أنت رجل محصل» (١٦٦)، وقد يقول قائل ـ على حد زعمه ـ «أنت رجل قد عملت فى السياحة بيقين وعلم»(٢٥٥)، وعندما وصل إلى أحد الحصون «إذا ثم رجل من بيت المقدس، فعانقنى، ورحب بى، وجعل يذكر لأهل الحصن محلى»،(٢٥٦)، وذات مرة قال له رجل: (أراك رجلا على طريقة حسنة، تحب الخير وأهله، وترغب فى جمع العلوم»(٩٧) وهو فى تقدير أهل الديلم عالم كبير، فهم «يسمون العالم معلما وربما تعلقوا بى، وقالوا: لوك معلم، واللوك، هو الجيد»(٣٦٩)، وهو محب لأهل النسك، مائل إلى أهل الزهد. ومن الممكن قبول هذه الآراء ـ مع الشك فى صدقها، ولكن مالا يقبل ذلك الذى ورد على لسانه مباشرة، بهدف تمجيد ذاته، حتى أنه جعل تأليف كتابه هدفا شخصيا ضيقا «حتى لا تدرس آثاره، وتنقطع أخباره»، يقول ـ دون مواربة ـ «فأردت أن أقيم علما أحيى به ذكرى»(٢) «بعدما رغبت نفسى فى الأجر، وطمعتها فى حسن الذكر»(٣).

على الجملة: المقدسى رجل عدل ـ بمصطلح أهل الحديث، ففى أقاليم المغرب «الستة لا يشهد إلا معدل، وحضرنا يوما إملاكا، فأمرنى أبو الطيب حمدان أن أكتب شهادتى، فهنيت بذلك» (٢٣٨).

ولعل القطعة التى يذكر فيها ما عاناه أثناء رحلاته تعد من أروع ما سطر قلم المقدسى، سواء من حيث طرافتها، أو تعبيرها عن شخص المقدسى، ولذلك فقد ترجمت مفردة إلى اللغات: الهولندية والألمانية والإيطالية والروسية والفرنسية والإنجليزية بين عامى ١٨٧٥، ١٩٤٦ وهى تحت عنوان: «ذكر ما عاينت من الأسباب»[2].

يُعد التعريف بماهية العلم موضوع التأليف مدخلا طبيعيا للمؤلف وهو من

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. المقدسى تحقيق دى خويه ليدن ط ١٩٦٧ – ص ١٢٧ ويلاحظ أن رقم الصفحة سيضمن فى المتن – من الآن فصاعدا – بين قوسين.

(٢) أحسن التقاسيم ٤٣ – ٤٥.

الأهمية بحيث يحكم نظرة المؤلف، ويتحكم فى توجهاته، كما أنه بمثابة الأساس الذى يورث العمل قوة أو ضعفا حسب طبيعته.

والمقدسى بنظرته الشاملة الكلية لم تفته هذه الملاحظة، فكان همه فى مواضع كثيرة أن يبين ماهية هذا العلم الذى يكتب فيه ـ وإن شاب نظرته شىء كثير من الغرور والفخر، معتقدا فى كتابه ـ وفى نفسه ـ السبق والابتكار، وانعدام النظير. يحدد المقدسى الاسم الدقيق للعلم الذى يكتب فيه بأنه علم ـ أو فن ـ «ذكر الممالك ـ أو الأقاليم ـ الإسلامية وما فيها» أى علم وصفها على ماهى عليه. وهو حين يطبق هذا المفهوم، تصادفه عقبات متنوعة، فيضطر إلى استخدام رأيه، حتى يستقيم له ما يبتغيه، ولكنه ينبه على أن تلك التقسيمات التى يبتكرها تقوم بوظيفة محددة، تتفق مع مفهوم أبى زيد البلخى الذى يعده المقدسى إمامه، ويعجب أيما إعجاب بقوله: «ليس فى جمع هذه الأطراف بعضها إلى بعض ـ ولا فى تفريقها ـ كبير درك، غير الإبانة عما فى أعراضها من المدن والأنهار، وسهولة العبارة فى التفصيل والصور»، ثم يعلق عليه قائلا: «ولعمرى، لقد صدق، ليس فيه إبطال حق ولا إثبات، ألم تعلم أن صدور الأمة قد رأوا آراء، وقدموا وأخروا، وورثوا، وأحلوا وحرموا وجوزوا وأبطلوا، وتلقاه الناس بالقبول، وسكنت إليه قلوبهم، ولم ينكر هذا عليم عاقل، بل أمر به النبى (ﷺ) معاذا لما بعثه إلى اليمن، وعمل به الصحابة؟ فلا عجب أن نرى نحن أيضا فى هذا العلم آراء، ويكون لنا فيه قياس واختيار»(٢٧٠).

ثم يتوجه إلى قارئه، قائلا: «اعلم أنى إنما ذكرت ما عهدت الأمر عليه فى وقتى، وقد تتغير الأمور، ألا ترى أنى اجتزت بمدينة «سرخس» سنة ٣٧٤، فرأيت رئيسهم مخلطا، وخطبيهم سخنة عين؟! وربما سهونا عن ذكر مدن وصفتها، وهى مشهورة، وقد دخلناها فلا يلمنا من كان منها؛ فإن الخطأ والنسيان من شأن الإنسان. وأيضا فلا يستوحش امرؤ ذكرنا عيوب بلده؛ فإنها لا يزيد بذلك ثلبها، كما لا يزيد بذكر محاسنها مدحها، ولكن هذا علم موضوع على الأمانة والصدق، وذكر الخير والشر»(٦٥). وعلى ذلك، فإن غرضه ـ فيما يرى ـ البيان

والإيضاح ـ لا الترتيب، وليس لأحد أن يأخذ علينا فيه الترتيب إلا في الكور؛ فإنا قد اجتهدنا في ترتيبها، حتى لا يجد أحد عابنا في ذلك طريقا؛ إلا أن يكون مغفلا»(٢٨٩ ـ ٢٩٠). ولا يرى مناصا من تذكير القارىء أنه لم يودع كتابه ما كان مجازا أو محالا. (٣) هذا هو الجانب الموضوعي من الكتاب، وهو يندرج تحت إطار «الجغرافيا الوصفية» بكل مالها من الخصائص.

ولكن: هل المقدسي صاحب الذات المتضخمة يرضى أن يقتصر على هذا الجانب فقط؟ وأن يكون كتابه مجرد عمل يمكن أن يوضع اسم أي شخص على غلافه؟ إن المتتبع لشخص المقدسي في كتابه سيدرك على الفور رفضه لهذا النهج، وإصراره على أن يحشر أنفه في كل صفحات كتابه إن استطاع، وبهذا الإصرار يتحول عمل المقدسي إلى كتاب في «الأدب الجغرافي» بدلا من أن يكون كتابا في «الجغرافيا الوصفية» فحسب. وسبب ذلك تلك المحاولات الدائبة للموازنة بين الذات والموضوع.

إن التدخل الدائم، وفرض الذات، يمثلان التطبيق العملي لهذا التوجه، وهناك نصوص تظهر نوايا المقدسي جلية؛ إنه يعترف بذلك حين يقول: «وقد أودعنا شيئا من الغوامض؛ ليجل ويقل، وأوردنا فيه الحجج توثقا، والحكايات تحققا، والسجع تظرفا، والأخبار تبركا وبسطنا أكثره، ليقف عليه العوام إذا تأملوه، ورتبناه على طرق الفقه، ليجل عند العلماء إذا تدبروه، وذكرنا الاختلافات تبحرا، والنكت تحرزا، وطولناه بوصف المدن لمعان شتى، وذكرنا الشئون لفوائد لا تخفى»(٨).

ولا يعني ذلك كله ـ فيما يرى ـ خروجا عن خطته المرسومة ونهجه القويم ـ كما حدث مع ابن الفقيه ـ بل ـ يقول المقدسي ـ «أوردت ـ حكايات ومناظرات لائقة بما نحن فيه، غير مشغلة عن الموضع الذي نذكره، وربما سجعت في مواضع ليتفرج إليها عوام الناس؛ لأن الأدباء يختارون النثر على النظم، والعوام يحبون القوافي والسجع»(٥).

ولأن كتاب المقدسي ذو ميزة فريدة، إذ يعد من يذكر فيه جليلا، فلا غرابة أن يقتصر على ذكر الفقهاء والكبراء فقط، وأن ينزهه عن أن يذكر فيه أحد العامة أو

السوقة.. أيا كان الأمر، فإن انتباه المقدسى إلى ضرورة الوصف الآنى الواقعى الذاتى يجذب كتابه إلى محيط الأدب، وإن ظل محتفظا بسمته الأساسية، وهى أنه كتاب فى «الجغرافيا» وفى هذه الأخيرة يبلغ الكتاب حدا من الثراء والتنوع جعل أحد كبار العارفين بالجغرافيا العربية يقر بأن المقدسى «أوشك أن يتناول معظم وجوه الجغرافيا فى كتابه»(١). وقد أعلن المقدسى نفسه«أن العلم فى هذا الباب عندنا أوسع من أن نكرره، أو ننقله من كتاب، أو نسرقه ـ إلا أن يضيق بنا الأمر، أو تلحقنا ضرورة»(٦).

يعود سبب تأليف المقدسى لهذا الكتاب إلى دافعين:

(أ) دافع ذاتى.

(ب) دافع موضوعى.

أما الدافع الذاتى فتمثله رغبته فى أن يترك أثرا يحيى به ذكره، ويرضى به ربه. وأما الدافع الموضوعى فكان رغبته فى أن يسد نقصا فى المكتبة العربية آنذاك. ويبالغ المقدسى فى تقدير مدى النقص فى هذا الفرع؛ فيذكر أن السابقين عليه صنفوا فى هذا العلم على الإخلال، وأنه سينفرد بذكره تاما؛ ومن ثم فإنك «إذا نظرت فى كتابنا وجدته نسيج وحده، يتيما فى نظمه، ولو وجدنا رخصة فى ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به، ولكن لما بلغنا الله تعالى أقاصى الإسلام، وأرانا أسبابه، وألهمنا قسمته، وجب أن ننهى ذلك إلى كافة المسلمين... وفيما نذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر»(٢٤١)، كما أنه «باب لابد منه للمسافرين والتجار ولا غنى عنه للصالحين والأخيار»(٢). وفى عدة مواضع يؤكد المقدسى أن فكرة وضع الكتاب هى نتاج ضغط متوال عليه من معاصريه، اعترافا منهم له بالعلم والمعرفة فى هذا الفن.

ويبدو أن تراكم رصيد معرفى هائل فى هذا المجال، هو الذى دفع المقدسى دفعا إلى الكتابة فى هذا العلم؛ فالحصاد نتاج عشرين عاما من التجوال والبحث

---

(١) كتب دائرة المعارف الإسلامية (٩) كرامرس. ترجمة «لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية». بيروت ١٩٨٢ ص ٨٥.

والتنقيب والاستفسار، كما أن الساحة الثقافية كانت فى حاجة إلى مزيد من الإسهامات فى هذا المجال.

بعد أن فرغ المقدسى من تأليف الكتاب، قام بتتبع العادات والتقاليد العلمية السائدة فى عصره، وتوصل إلى أن العلماء على قسمين:

١ ـ الأول منهما يعقد لنفسه مجلس علم، فإذا عرف وشهر، صنف الكتب، فيتلقاها الناس بالقبول.

٢ ـ والثانى ينسب كتابه إلى أمير جليل أو صدر نبيل، ليشرف تصنيفه ويعلو قدره. وقد اختار المقدسى أن يندرج فى سلك القسم الثانى؛ فاختار أمير السامانيين ليهدى إليه كتابه فى المرة الأولى، ثم اختار الخليفة الفاطمى فى المرة الثانية ليهديه الكتاب، وحينئذ أجرى عدة تعديلات لتناسب سيده الجديد.

الخلاصة أن المقدسى هدف إلى الفائدة المزدوجة، لنفسه ولمعاصريه، وبذلك كان كتابه معلما أو دليلا، كما هدف إلى إمتاع قارئيه بطريقته الخاصة، فكان كتابه معلما وممتعا فى آن.

* * *

الجغرافيا علم عملى، يعتمد الدراسة الميدانية الواعية منهجا، ويطمئن إلى نتائجها.

وهذه الدراسة الميدانية لها عدة مراحل:

١ ـ الدراسة التمهيدية، أو ما يمكن أن يسمى «الدراسة المكتبية».

٢ ـ الدراسة الأساسية، أو ما يطلق عليه «الدراسة الميدانية».

٣ ـ الدراسة التكميلية ووظيفتها ـ: استكمال ناقص ـ أو تجلية غامض ـ الدراسة الأساسية، ثم تنظيم وتبويب معطيات الدراسة الميدانية وعرضها على نتائج الدراسة المكتبية؛ وصولا إلى نتيجة معتمدة فيما يتعلق بمجال الدراسة.

أولا : الدراسة المكتبية :

وفى هذه المرحلة يجمع الجغرافى كل ماكتب عن المنطقة المستهدفة، ثم يعكف على دراسته. ليخرج بعدة نتائج تفيد فى تحديد خطة الدراسة الأساسية.

هذه النتائج ستؤدى إلى معرفة مدى العناية والعلم بهذه المنطقة، ليظهر أن ثمة جوانب قد استوفيت، وأن أخرى لم تستوف، وأن ثالثة مازالت بكرا، ورابعة تحتاج إلى مزيد من إيضاح.

المنطقة المستهدفة عند المقدسى تتمثل فى المملكة الإسلامية كلها، ولذلك فقد جمع المقدسى كل ماتيسر له من مصادر تتناولها، ثم قام بقراءاتها قراءة فاحصة، ونقدها، ليتوصل إلى نتيجة مؤداها: أن المنطقة – ككل– لم تدرس دراسة شافية، وأن بعض أجزائها قد نال حقه من الدراسة، ومن ثم فهو يعتمد على الوصف الجيد الجزئى لمناطق بعينها لم يزرها، أما الوصف العام فيعتمد فيه على الدراسة الميدانية العملية الشخصية.

فيما يتعلق بالمصادر التى تعرضت للممالك الإسلامية. يُلاحظ أمران:

١– أنه تعرض لأصحابها بالنقد الشديد، الذى يصل أحيانا إلى درجة التجنى، ممهدا بذلك الطريق لكتابه لكى يتبوأ مكانة رفيعة بينها.

٢ – رغم زعمه الإحاطة بالمصادر السابقة عليه، فقد فاتته مصادر هامة للغاية فى مجال عمله، منها– على سبيل المثال لا الحصر –ما كتبه اليعقوبى، وابن رسته، والهمدانى. والمسعودى وابن فضلان، وأبودلف، وأخيرا ابن حوقل، أما من ذكرهم المقدسى فلم يدع أحدهم دون أن يوجه إليه انتقادا، حتى من ادعى أنهم أئمته، وفيما يلى تفصيل لأهم مآخذه عليهم:

١ – ابن خرداذبه:

أخذ عليه أن كتابه– وكتاب الجاحظ أيضا– مختصر، لايحصل منه كثير فائدة، ولكنه اعتبره إماما فى هذا العلم (٦٨)، واعتمد عليه فى بعض المعلومات عن الأندلس، وخراج اليمن وقنسرين، وقصة سد يأجوج ومأجوج، كما بين أن الجيهانى سرق مصنفه، وبذلك ورد ذكر ابن خرداذبه –صراحة– ثمانى مرات.

٢ - أبوزيد البلخى:

ادعى المقدسى أنه إمامه فى هذا العلم، ولكنه أخذ عليه أنه «قصد بكتابة الأمثلة وصورة الأرض، بعدما قسمها على عشرين جزءا ثم شرح كل مثال واختصر، ولم يذكر الأسباب المفيدة، ولا أوضح الأمور النافعة فى التفصيل والترتيب، وترك كثيرا من أمهات المدن فلم يذكرها، وما دوخ البلدان، ولا وطىء الأعمال، ألا ترى أن صاحب خراسان استدعاه إلى حضرته، ليستعين به، فلما بلغ جيحون كتب إليه: إن كنت استدعيتنى لما بلغك من صائب رأيى، فإن رأيى يمنعنى عبور هذا النهر، فلما قرأ كتابه أمره بالخروج إلى بلخ»[٤] .

وقد ورد ذكر أبى زيد صراحة خمس عشرة مرة، تعرض فى أربع منها للنقد، وفى ثلاث للمدح باعتباره إماما فى هذا العلم، ومرتين للمدح باعتباره أو فى على الغاية فى وصف مناطق بعينها، ومرتين يذكر فيهما مفهومه لهذا العلم، وأربع مرات ذكر فيها بعض آرائه.

٣ - الجيهانى :

أخذ عليه «أنه كان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة، فجمع الغرباء، وسألهم عن الممالك ودخلها، وكيف المسالك إليها، وارتفاع الخنس منها، وقيام الظل فيها، ليتوصل بذلك إلى فتوح البلدان، ويعرف دخلها، ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك، ألا ترى كيف جعل العالم سبعة أقاليم، وجعل لكل إقليم كوكبا: مرة يذكر النجوم والهندسة، وكرة يورد ماليس للعوام فيه فائدة، وتارة ينعت أصنام الهند، وطورا يصف عجائب السند، وحينا يفصل الخراج والرد، ورأيته ذكر منازل مهجورة، ولم يفصل الكور ولا رتب الأجناد، ولا وصف المدن ولا استوعب ذكرها، بل ذكر الطرق شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، مع شرح مافيها من السهول والجبال والأودية والتلال والمشاجر والأنهار ، وبذاك طال كتابه، وغفل عن أكثر طرق الأجناد، ووصف المدائن الجياد»[٣] ، وفى موضع آخر يتهمه بسرقة أصل كتاب ابن خرداذبه (٤١)، ومع ذلك يعده، إماما فى هذا العلم (٦٨) ويأخذ برأيه فى عدة مواضع.

٤ - ابن الفقيـــه :

يأخذ عليه المقدسى أنه سلك «طريقة أخرى، ولم يذكر إلا المدائن العظمى، ولم يرتب الكور والأجناد، وأدخل فى كتابه مالا يليق به من العلوم: مرة يزهد فى الدنيا، وتارة يرغب فيها، ودفعة يبكى وحينا يضحك ويلهى»[٤] ويزعم أنه رأى كتابه- الأصلى- فى خمسة مجلدات[٥] ، ويأخذ عليه وعلى أبى نصر ذلك الخروج الدائم عن الموضوع رغم أنهما «قد احتجا بأنا إنما أدخلنا خلال كتبنا ما أدخلنا ليتفرج فيها الناظر إذا مل، وربما كنت أنظر فى كتاب ابن الفقيه، فأقع فى حكايات وفنون، أنشأها أين كنت من البلدان، ولم أستحسن أنا هذا»[٥] .

ويزعم المقدسى أنك: «إذا نظرت فى كتاب ابن الفقيه، فكأنما أنت ناظر فى كتاب الجاحظ والزيج الأعظم» (٢٤١) .

ومع هذا النقد اللاذع، فإنه يعده إماما فى هذا العلم (٦٨)، ويستأنس برأيه فى ثلاثة مواضع.

٥ - الإصطخرى :

ويفصل - بصدده - فى شأن نسبة الكتاب إليه، فيصل إلى أنه له، لا لأبى زيد البلخى، وهو «كتاب قد أجاد أشكاله، إلا أنه قد خلط فى مواضع كثيرة، ولم يبالغ فى الشرح، ولاكور الأقاليم»[١] ، كما يستدرك عليه فى موضع آخر (٧٨)، ويعتمده مصدرا أساسيا فى حديثه عن إقليم السند، بحيث يمكن عد هذا الجزء منقولا عن الإصطخرى.

وهذه الانتقادات الخاصة صحبتها انتقادات عامة لسابقيه، غير أنها لاتمنع كونه قد أفاد من هذه المصادر كثيرا.

وهناك مصادر أخرى أفاد منها المقدسى: كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وبعض الآثار عن الصحابة، والأخبار عن التابعين، وكذلك الشعر، فيورد أربعة وعشرين بيتا فى مواضع مختلفة (٩٩- ١٦٠- ٣٣٢- ٣٨٥- ٣٩١- ٣٩٢-

٤٥٠)، كما يورد قصيدة من إنشائه فى ختام الكتاب قوامها اثنان وعشرون بيتا.

وثمة كتب من مصادره تصدر بلفظ أخبار، فهناك كتاب «أخبار البصرة»، (٢٣- ٢٥)، و «أخبار المدينة» (٨٢)، إضافة إلى مصادر أخرى عديدة، مثل: كتاب خزانة عضد الدولة والصاحب (٥- ١٣٣- ٢٥٩- ٢٥٨- ٢٩٤- ٤٤٨)، وخزانة بعض الخلفاء (١٢١)، وبعض الكتب (١٦٠)، وكتاب الطلسمات (٢١١)، وكتاب الدعائم (٢٣٨)، والشمشاطى فى تاريخه (١٢٠)، والبلاذرى (٣١١).

ثانيا : الدراسة الميدانية:

وهذا المجال مبعث فخر المقدسى، إذ يزعم أنه قطع الإسلام طولا وعرضا، ولم يترك بلدا إلا دخله، وهو الزعم الذى نقضه بنفسه عندما أعلن أنه لم يدخل الأندلس، ولم يطأ معظم أراضى إقليم السند.

الدراسة الميدانية المعاصرة تقوم على عدة أسس :

أولا : يقوم بها فريق عمل متكامل، ولا يقوم بها فرد مطلقا، بل إن التحرك الفردى مشجوب عند الجغرافيين المعاصرين.

ثانيا : يقوم الباحث الجغرافى برحلته الميدانية على ثلاث مراحل :

(أ) رحلة تمهيدية .

(ب) رحلة عملية .

(جـ) رحلة مكملة.

ثالثا : تشتمل الرحلة – بجانب الرؤية والاختبار المباشرين– على طريقة الاستبيان: سواء أكان مغلقا أو مفتوحا، أو شاملا أو بالعينة.

رابعا : أن يكون مجالها محدودا حسب الإمكان، حتى يمكن وصفه وصفا شاملا صحيحا.

نبدأ من النهاية، لنقرر أن مجال عمل المقدسى كان واسعا للغاية، وإذا كان قد

قضى عشرين عاما راحلا، فإنه زار أقطارا بعينها غبا، وبذلك لم يتيسر له التعرف الدقيق المتأنى عليها، فاضطر للاستعانة بجهود غيره كى يكون وصفه لها متوازنا مع وصف غيرها.

وقد تسبب اتساع المجال فى تشتت جهود المقدسى وتفاوتها، وانعكس هذا على صفحات كتابه، كما ساهم عدم تحديده لهدفه تحديدا دقيقا فى عدم ثبات وصفه للبلاد على وتيرة واحدة، فأغفل جوانب مهمة كثيرة فى بلاد متعددة، وكذلك ساعد الاتساع الزمانى المكانى لرحلاته على اختلاط معارفه وتفرقها، نظرا لطول الفترة بين تحصيلها ثم تسجيلها ثم نشرها، وأسهم فى زيادة صعوبة البحث الجغرافى على المقدسى أنه كان فردا، وأنه لم يكن مؤهلا للبحث فى بداية رحيله، وأن تمويل الرحلة كان ذاتيا، وأن الأدوات التى استخدمها لم تكن قد تطورت بعد، بل إنه اعتمد فى الغالب على خبرته الشخصية فى إدراك الظاهرة دون استعانة بأدوات معاونة. إن الرحلة الجغرافية الحديثة تقوم على أكتاف فريق عمل متكامل، يشكل أفراده كتلة واحدة هدفها خدمة البحث الجغرافى.

والباحث الفرد محدود الإمكانات، وتتعاوره المخاطر والصعوبات، ولذا فإنه ليس مرشحا لأن ينجز أو يضيف كثيرا مما يمكن أن يضاف إلى رصيده، وهذا ماحدث بالضبط مع المقدسى، إذ لم يستطع أن يلملم شتات أفكاره، فاستعاض عن ذلك باختراع التقسيمات والتحديدات التى خضعت لتقديره الشخصى، وكذا بمحاولة المقارنة والتجميع، بين المعلومات والأقاليم، وهو فى هذا الصدد يأتى بنظرات ثاقبة، تنم عن ذكاء ملحوظ خاصة فيما يتعلق بالربط بين المتشابهات، كما أن اضطرار المقدسى للعمل من أجل تمويل رحلاته أعاق مسيرة البحث الجغرافى عنده، وجعله فى مرتبة هامشية فى أحيان كثيرة، ولا حاجة للتذكير بأنه لم يكن يصحب معه إلا الضرورى من أسباب الحياة، وأنه لم يعتمد على أدوات معاونة فى البحث. أما فيما يتعلق بمراحل الدراسة الميدانية العملية، فيمكن ملاحظة أن المقدسى طبقها فى عدد قليل من البلدان، وخاصة تلك التى تطول إقامته فيها، كمكة المكرمة التى يذكر أنه زارها عام ٣٥٦، ثم عام ٣٦٧ (١٠١)، كما يذكر أنه أقام

باليمن حولا كاملا (٨٨) ، وأقام ببيار أربعة أشهر. وهو يتبرأ من التغيرات التى تطرأ على البلدان والظواهر، فتناقض ما ورد فى كتابه (٦٥) .

غير أنه اقتصر فى الغالب على تطبيق المرحلة الثانية الأساسية فى الدراسة الميدانية، وقد اضطره إلى ذلك: ضيق الوقت، واتساع المساحة، وانعدام الأمن- أحيانا، وارتباطه- أحيانا- بالقوافل، إضافة إلى ضيق ذات اليد.

أما فيما يتعلق بالاستبيان أثناء تلك الرحلات الميدانية، فالمقدسى يركز عليه ويستخدمه كثيرا. وقد اعتمد فى هذا الصدد على طريقة الاستبيان بالعينة، إذ اقتصر على عقلاء وأكابر وأجلة كل بلد فى إمداده بالمعلومات التى يطلبها، أو فى الإجابة على الأسئلة التى يطرحها. وعدد الشخصيات التى يورد أسماءها فى كتابه من المعاصرين كعينات للاستبيان بلغ سبعة وسبعين شخصا، وردت أسماؤهم مائة وإحدى وعشرين مرة.

وقد اتبع أيضا طريقة الاستبيان المفتوح، إذ لم يكن الاستبيان المغلق قد عرف بعد، كما أنه يتطلب إمكانات فنية ومادية لم تكن متوافرة حينئذ.

وتعود المقدسى على عرض ماسجله على العارفين بكل إقليم، يقول فى إقليم السند: أما المثال والشكل، فعلى سبيل مادبرت مع من عرف هذا الإقليم ودوخه من أهل الفهم، وأكثر ما مثلت من الأقاليم فلم أمثلها حتى دبرت مع عقلاء ذلك الإقليم، واستعنت بفهمائه» (٤٧٥).

وفى مواضع بعينها يتبرأ من عهدة المعلومات الواردة عنها، فيقول: «لم أدخلهن، ولم أر عاقلا أدبر معه فى بابهن، وإلى أين وجب أن يضفن»(٤٦٨). أما فيما يتعلق بخرائط المقدسى- التى لم يضمنها دى خويه طبعته- فيذكر أنه بذل فيها مجهودا كبيرا، «حتى صحت، بعدما تأملت عدة من الصور، منها صورة وجدتها بخزانة ملك المشرق على كاغدة مصورة، مثال مربع لم أعتمده، وأخرى على كرباسة عند أبى القاسم بن الأنماطى بنيسابور أيضا مربعة، وماصوره إبراهيم الفارسى- وهو أقرب إلى الصحة، يعتمد عليها، وقد أخل وخلط فى مواضع كثيرة، ورأيت شيخا بسرخس قد فصل الأشكال، وصور بلد الكفر والإسلام كله

خطأ إلا القليل، وقلت له: هل سافرت؟ قال: ماجاوزت سرخس. قلت: قد سمعت بمن شرح الأقاليم بالخبر، وقد وقع فى ذلك ماوقع من التخليط، ولم أر من صور الأقاليم بالنقل غيرك»[٦] .

ويستعرض أهم الخرائط الموجودة فى عصره، ويعلق عليها، ثم يؤكد على ضرورة المعاينة المباشرة للظاهرة، كى يكون رسم خريطتها قائما على أسس سليمة. ولعل أطرف ما فى خرائط المقدسى أنها كانت ملونة حسب زعمه، فمملكة الإسلام «حررنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة، وبحارها المالحة بالخضرة، وأنهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها المشهورة بالغبرة، ليقرب الوصف إلى الأفهام، ويقف عليها الخاص والعام»[٩] .

إن اتباع المقدسى لهذا النهج العلمى جعل باحثا مدققا- كياقوت الرومى- يستعين به فى اثنين وأربعين موضعا[١] ، دون أن يعلق على معلوماته كعادته مع غيره، مما يعنى ثقة ضمنية يوليها إياه، والجدير بالذكر هنا أنه استعان بالنسخة المعدلة المكتوبة عام ٣٧٨هـ.

* * *

زعم المقدسى أنه ألف كتابه استجابة لضغوط معاصريه عليه، اعترافا منهم له بالعلم فى هذا المجال، ولكنا نزعم أن توافر كم كبير من المادة العلمية كان الدافع الأول لإخراج الكتاب، ثم كان بحثه عن شهير لينسب إليه كتابه.

ولكن كيف تكونت المادة؟ وكيف صنفها؟ وما الخطوات التى اتبعها قبل أن يخرج كتابه إلى الوجود؟

أكد المقدسى على أنه يصف البلاد على ماعهدها عليه، ومعنى ذلك أن ثمة

---

(١) انظر : معجم البلدان - ياقوت الرومى، بيروت ١٩٨٦ صفحات (١٤٣/١- ١٤٦- ٣٦٠- ٤٤٠، ٢٤٤/٢ - ٣٤١- ٣٤٦- ٣٩٧- ٤٤٦- ٤٥٤- ٤٥٦- ٦٠/٣- ٦٩- ٧١- ٧٩- ١٦٧- ١٦٨- ١٧٢- ١٧٤- ١٨٠- ٢٤١- ٢٩٥- ٣٠٩- ٣٧٦- ٣٨٠- ٤٨/٤- ١٤٣- ١٥١- ١٥٧- ١٩٣- ٢٨٣- ٣٠١- ٣٠٢- ٣٨١- ٣٨٨- ٤٢٩- ٤٥٤- ٤٦٤، ١٦٥/٥- ١٦٨- ١٧٣- ١٩٨) .

فكرة محددة ثابتة لديه عن كل بلد، وهذا يدعم القول بأنه كان يدون مايراه فى تلك البلاد، تدوينا مباشرا آنيا، حتى لايترك للذاكرة فرصة التحكم فى مصداقيته، وآية ذلك الجزء الخاص بالمسافات، فهو جزء ضخم فى كل إقليم، ويحتاج إلى معرفة المسافة بين كل موضع وآخر، وهذا يقتضى سرعة تدوين الأرقام حتى لاتنسى..

وإذا، كان قد دون المسافات، فليس ثمة مايمنع تدوين المعلومات عن البلاد، إذ يكون تدوين المسافات، هاهنا- الدافع المباشر لذلك.

إذا ، كانت هناك مادة مدونة آخى المقدسى بينها وفق تخطيطه المبدئى، ثم حاول أن يخفف من جفاف وصرامة المادة بإضافة حكايات شخصية واستطرادات، وبعد أن رتب مادته حسب هذا التخطيط، كتب المقدمة الطويلة الرائعة لكتابه، وضمنها منهجه الذى اتبعه فى صلب الكتاب.

بعد ذلك حمل معه مسودة الكتاب- أو محضره كما يسميها- حملها معه أينما حل، ليعرضها على علماء هذا الفن، أو على أهل كل إقليم والخبراء به، ومازال يعدل فى كتابه، وينقح ويزيد، حتى بلغ سن الأربعين وحينئذ رأى ضرورة نشره وإظهاره للعامة.

ويبدو أن لسن الأربعين دلالة خاصة، إذ يقال: إن الإنسان عندها يتناهى عقله ويكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لايتغير غالبا عما يكون عليه فى سن الأربعين[1].

وكأن فى ذلك إيحاء بأن الكتاب قد أوفى على الغاية، لأن صاحبه أوفى عليها كذلك.

يتميز كتاب المقدسى بخاصتين هامتين:

١ - اتباعه لنهج علمى صارم- فى أغلب الأحيان- كفل له تقديم صورة شديدة الوضوح غنية المحتوى، للعالم الإسلامى، كما يقول بروكلمان.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى، دار القرآن، بيروت، ١٩٨١، ٣١٩/٣.

٢- اعتماده على الدراسة الميدانية المباشرة، التى أدته إلى الاعتداد بذاته، وإدخالها طرفا، مما أحدث شيئا من التوازن فى المضمون، وأبعدعن الكتاب شبح الجفاف الصرف أو العلمية البحتة.

يسدى المقدسى خدمة جليلة عندما يعى ضرورة التنظير لهذا العلم، وتوضيح خوافيه، وتجلية غوامضه، ومن ثم كانت مقدمة الكتاب التى امتدت لحوالى سبع الكتاب، وأتاح هذا الاتساع الفرصة للمقدسى لبيان منهجه، وتوضيح المشكلات التى صادفته، وكيف تغلب عليها، كما أتاح له الفرصة لاستعراض قدراته العقلية والتجميعية، فأتحف قارئه بالعديد من النظريات المقدسية، وزوده بالكثير من الملاحظات الطريفة.

هذه المقدمة تتضمن عدة موضوعات هى: خطبة الكتاب، ثم مقدمات وفصول لابد منها، وذكر البحار والأنهار، وذكر الأسامى واختلافها، وذكر الخصائص فى الأقاليم، وتأثير حروف الأسامى فى أمزجة أهل الأماكن المسماة، وذكر المذاهب والذمة، وذكر ماعاينت من الأسباب، وذكر المواضع المختلف فيها، وباب اختصرناه للفقهاء، وذكر أقاليم العالم ومركز القبلة، ثم أخيرا: مملكة الإسلام.

ورغم أن المقدسى جعل كتابه قسمين، فإن طول المقدمة وثراءها يجعلانها شبه قسم مستقل، وعلى ذلك يكون توزيع أقسام الكتاب كالتالى:

(أ) المقدمة .

(ب) أقاليم العرب، وهى ستة .

(جـ) أقاليم العجم، وهى ثمانية .

تتضمن خطبة الكتاب مقدمة تقليدية، يحمد الله ، ويصلى ويسلم على رسوله وآل بيته وصحبه، ثم تتركز حول الأرض وخلقها وأهم ظواهرها مما حقق انسجاما بين غرضه وألفاظه، وهو بذلك يطبق بعض ما اشترطه البلاغيون، ثم يتحدث عن أسباب تصنيف الكتاب بعامة كما يرى، ويبين أنه قصد إلى فن لم تستوف دراسته ليكتب فيه، وهو «ذكر الأقاليم الإسلامية»، لأنه علم مرغوب فيه من كافة الفئات،

ويوضح أنه جمعه جمعا ميدانيا عانى كثيرا فى سبيله، واكتسب آنذاك خبرة واسعة تؤهله للكتابة فيه، وختمها بطمأنة قارئه على أن كم الثقة فى كتابه كبير، لأسباب ذكرها.

وفى الجزء المخصص للمقدمات الضرورية تحدث عن مصادره، وناقشها، ثم تحدث عن رموز ومصطلحات الكتاب، وشرحها شرحا وافيا، بالأمثلة، وهو منحى علمى مشكور، وبين أنه حرصا منه على عدم ملل القارىء، فقد وشح كتابه بما يذهب هذا الملل، ويذكر بعض قواعد التأليف، توطئة لتوضيح اقتصاره على مملكة الإسلام فحسب، وإغفاله وصف ممالك الكفار لانعدام الفائدة ولعدم دخولها، ويفصل أقاليم المملكة. ينتقل المقدسى للحديث عن البحار والأنهار، ويتمسك- فيما يخص البحار- بالحقيقة الكونية المتضمنة فى قوله تعالى ﴿ **مرج البحرين يلتقيان**﴾ ويظل لصفحات طويلة يناقش هذه المسألة، ويقلبها على وجوهها، مفترضا ومتسائلا ومجيبا ومفرعا، وهو فى هذا كله متأثر بمنهج الحنفيين التفريعى الافتراضى، وتفسير هذه المسألة مازال- حتى الآن- محل نظر العلماء، وقد أورد كراتشكوفسكى آراء عديدة، فى هذا الصدد، وناقشها، وأخيرا أيد الرأى القائل بوجود محيط سماوى وآخر أرضى. ثم ينتقل إلى الحديث عن الأنهار فيذكر أن كبارها اثنا عشر نهرا، وصغارها خمسة عشر نهرا، ثم نهيرات أخرى يذكرها فى مواضعها.

ويتضح الطابع التجميعى فى الفصل الخاص بذكر أسامى المواضع التى تتفق أسماؤها، وتختلف فى مواضعها، ويشكل على الناس أمرها، ويذكر فى هذا المجال مائة وثمانية وستين موضعا، ولعل هذا الفصل الذى يعد المقدسى أول من كتب فيه- لعله يعد دافع ياقوت إلى تأليف كتابه: «المشترك وضعا والمفترض صقعا»، والذى اتسعت مادته لتشمل ألفا وواحدا وتسعين اسما، تعالج أربعة آلاف ومائتين وواحدا وستين موضوعا. وإكمالا للفائدة ذكر المقدسى المدن ذات الأسماء المتعددة كمكة والمدينة، وقد اجتمع لديه فى هذا المجال تسع مدن، لها تسعة وعشرون اسما.

يتلو ذلك بيان ببعض الأسماء المتعددة للشيء الواحد فى الأقطار المختلفة، مثل: جزار وقصاب ولحام، ويعددها هنا مائة وواحداً وثمانين اسما.

ومن فصول المقدمة الطريفة الفصل الخاص بخصائص الإقليم، وفيه يفرق المقدسى الأحكام يمنة ويسرة، معتمدا على خبرته الشخصية فى هذا المجال، فيبدأ بتوزيع الفضائل على اثنى عشر إقليما، ويوزع المثالب على إقليمين فقط هما: خوزستان والمغرب، ويثنى برأى الجاحظ، ويستدرك عليه، ثم يتحدث عن فضائل أو عيوب مواضع بعينها، وكذلك سكانها، محكوما بلغته المسجوعة التى تجبره على قول مالايريد. ويشمل هذا الفصل ثلاثة وسبعين موضعا بعضها مكرر.

ويمكن فى هذا الصدد ملاحظة أن أغلب أسماء الأشخاص الذين يوردهم المقدسى ينسبها إلى بلدها، بل إن اسمه منسوب إلى بلده، كما يلاحظ استعانته بمصادر معنونة بأخبار البلاد، كأخبار البصرة، وأخبار المدينة، وغير ذلك، كما اتبع فى تقسيمه القسمين الكبيرين: العرب والعجم، وأيضا أورد بعض المفاخرات بين البلدان (٣٢٦). ولعل جذور ذلك كله تعود- دون أن يدرى المقدسى- إلى فكرة الشعوبية التى سادت فى القرون السابقة عليه، ولعل فكرة الشعوبية هذه كانت دافعا لتقدم علم الجغرافيا العربى، إما لتأييدها، أو لنفيها. وبناء على خبرة واسعة، واعتمادا على أسماء البلدان ومواقعها، يبين المقدسى لقارئه الكيفية التى تدله على خصائص كل بلد، وذلك فى الفصل المسمى فى إحدى نسخ الكتاب بتأثير حروف الأسامى فى أمزجة أهالى الأماكن المسماة؛ فهو يزعم- مثلا- أن كل بلد فيه صاد فأهله حمقى، وإذا اجتمعت صادات فنعوذ بالله، وكل بلد آخره ان «ألف ونون» فله خاصية وطيبة، وكل بلد شديد البرد فأهله سمان ضخام كبار اللحى وكل بلد على بحر أو نهر فالزنا واللواطة فيه (٣٦) إلى آخر تلك الملاحظات الطريفة الخفيفة التى هى أقرب للفكاهة منها إلى الحقائق العلمية.

وأخيرا يجد نفسه مضطرا لترشيح مدينة لتكون ملكة مدائن المملكة، وبلا تردد يتوج الفسطاط التى انتزعت العرش بجدارة من بغداد، ونسختها إلى يوم الدين على حد تعبيره.

ولاشك أن هذه الأحكام ترضى فضول القارىء، وتقيم علاقة وثيقة بينه وبين العمل الذى بين يديه، رغم أنها- فى الغالب- أحكام شخصية. ولكن أليس من حق المقدسى أن يصدرها طالما أن الذوق الشخصى هو الفيصل النهائى فى هذه النواحى الطريفة؟

ومع ذلك يراعى المقدسى نسبية الأذواق، فيختم هذا الفصل بعبارة رائعة أضافها للنسخة الثانية، يقول: «وعلى الجملة، أطيب البلدان ما كانت اليد فيه أوسع، ولو كانت قرية». (٣٦).

أما الفصل الثانى فتناول فيه المذاهب السائدة فى عصره، وعددها ثمانية وعشرون مذهبا، وزعها حسب أماكن انتشارها، وناقش أصولها، ثم انتقل إلى القراءات وأهل الذمة وخلافات المذاهب، وصفات فقهاء كل مذهب، كما علل لاختياره نظام الرباعيات بدلا من النظام السباعى السائد، متوقعا النقد، ورادا عليه قبل أن يوجه إليه.

أما أفضل فصول المقدمة وأطرفها، وأكثرها دلالة، فهو ذلك الفصل المعنون بـ «ذكر ماعاينت من الأسباب» ويتعرض فيه لما لاقاه أثناء رحلاته، وقد مر آنفا، ثم يليه الفصل الخاص بذكر المواضع والمشاهد المختلف فيها، أى المختلف فى تحديد أماكنها كقبر آدم عليه السلام، الذى ذكر أنه فى خمسة مواضع مختلفة، وعدة هذه المواضع والمشاهد المختلف فيها خمسة عشر موضعا، ثم يختصر بابا للفقهاء، يوضح فى بدايته دلالة كل لفظ يطلقه على المواضع، ويذكر أن الأقاليم- فى عرفه- أربعة عشر إقليما، وأن الأمصار سبعة عشر مصرا، وأن القصبات سبع وسبعون قصبة، ثم يفصل ذلك كله ذاكرا الكور والمدن والقرى والنواحى.

بعد ذلك ينتقل إلى ذكر أقاليم العالم ومركز القبلة، فيبدأ بصورة عامة للأرض، ويفصل الأقاليم السبعة متبعا النظرية السائدة آنذاك، ثم تخصص المملكة الإسلامية بالوصف، فيذكر موقعها ومساحتها وخراجها، وأخيرا يهدى كتابه للأمير السامانى. بعد هذه المقدمة الطويلة المفيدة يشرع المقدسى فى وصف الأقاليم الإسلامية، وهنا يبدأ الجانب التطبيقى فى الكتاب.

كل إقليم يحتوى على عدة كور، ولكل كورة قصبة، ولها عدة مدن وكل مدينة لها عدة نواح أو قرى، والأقاليم على نوعين: الأقاليم العربية، والأقاليم العجمية.

وقد زعم المقدسى أن هذه الأقاليم مرتبة حسب حدودها، ولكن متتبعا مدققا لهذا الزعم سيكتشف زيفه، أو عدم دقته على الأقل، هذا بينما يسود وصف الأقاليم العربية نهج واضح المعالم.

وهذه التقسيمات من اختراع المقدسى، لم يسر فيها على مثال سابق، وإن كان متسقا مع أغلب أصول مدرسة البلخى الإسلامية.

وقد زعم أن هذه التقسيمات موضوعة على أسس طبيعية، لا على أسس سياسية، يقول ممثلا لهذا النهج «أما الولايات فليست حجة فى هذا الباب. ألا ترى أن سيف الدولة كانت له قنسرين والرقة، ولم يقل أحد أن الرقة من الشام»(٣٥). غير أنه ما لبث أن نقض هذا الزعم، معتمدا الواقع السياسى أصلا؛ فالمنطق العلمى ـ حسب مفهومه ـ يقتضى فصل جانب هيطل عن جانب خراسان فى إقليم المشرق، ولكنه لم يفعل، واحتج بأنا «لم نحب أن نفرق مملكة آل سامان؛ إذ المشهور فى الإسلام أنهم ملوك هيطل، وإنما دار ملكهم فى هيطل» (٦٨)، وكذلك فعل مع «غرج الشار» حيث جعل هذا الموضع مستقلا لاعتبارات سياسية، غير أنه عاد إلى التقسيم الطبيعى مرة أخرى فى حديثه عن إقليم السند؛ إذ «أضفنا إليه مكران؛ لأنها بقربه مصاقبة له، ولتتصل الأقاليم: بعضها إلى بعض (٤٧٤)». تذبذب المقياس هذا نتيجة مباشرة لتدخل عوامل غير موضوعية فى منهجه أملاها ـ فى الحالة الأولى ـ أنه يقدم كتابه للسامانيين، وفى الثانية إعجابه الشديد بملك غرج الشار وعدله.

أعلن المقدسى فى خطبة الكتاب أنه سيلتزم بمضمون معين، يحشو به الشكل، وأنه لن يحيد عما جاء فى الخطبة، التى أورد فيها أنه سيذكر مملكة الإسلام وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن

الحمل والتجارات،واختلاف أهل البلدان فى كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم، ومكاييلهم وأصواتهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرها وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار فى المفازات، وعدد المنازل فى المسافات، وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال، والحواوير والسماق، والسمين منها والرقاق، ومعادن السعة والخصب، ومواضع الضيق والجدب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم، والممالك والحدود، والمصارد والجروم، والمخاليف والزموم، والطساسيج والتخوم، والصنائع والعلوم، والمباخس والمشاجر، والمناسك والمشاعر»(١ ـ٢).

وقد اقتضى التطبيق العملى للمنهج أن تنقسم دراسته لكل إقليم إلى قسمين:

١ ـ وصف عام مفصل للإقليم يغطى فيه الكور والمدن والقرى والنواحى.. إلخ.

٢ ـ قسم أسماه «جمل شئون الإقليم»، وتضمن ما يلى حسب الترتيب الغالب: المناخ ـ والزراعة، والأنهار والبحار، والمذاهب، واللغة واللهجات، والقراءات، والتجارات، والخصائص (ما تفرد به الإقليم)، والمكاييل، والموازين، والنقود، والرسوم (أى العادات والتقاليد)، والمياه والمعادن، والعصبيات المذهبية أو العرقية والمشاهد، والأخلاق، والولايات (أى الانتماء السياسى)، والضرائب، والمكوس، والمراصد، والخراج، وصفات أهل الإقليم، ثم ـ أخيرا ـ المسافات بين مختلف مواضع الإقليم الواحد.

ويتضح مما سبق أن الالتزام الحرفى بما جاء فى الخطبة غير قائم، وهذا لا يعنى التحلل التام مما شرطه على نفسه، فحوالى ثلاثة أرباع ما أورده فى الخطبة يتضمنه التفصيل الإقليمى التطبيقى.

ولكن ثمة إضافات أملتها طبيعة كل إقليم؛ كالمضار والقبائل فى إقليم الجزيرة العربية، والموقع فى إقليم الشام، والشهور القبطية فى مصر.. إلى غير ذلك. ويعترض الوصف العام للأقاليم ـ الملتزم بالمنهج ـ حكايات طريفة، تمجد شخصه، وتظهر كما لو كانت خروجا على المسار، بيد أنه حاول أن يقيم صلة واهية بين حكايته وموضعها، ومعلوم أنه أخذ على ابن الفقيه ذلك الحشو والاستطراد غير

الملائم، إلا أنه وقع فى الشرك نفسه، ولكن المؤكد أن الفارق بينهما مازال متسعا، وكفة المقدسى هى الراجحة فى هذا المجال بالطبع. ويخرج كذلك عن نطاق منهجه المحدد بعض الاستطرادات، كبعض المسائل الطبية (٢٤٢)، ومعظم ما ذكره من حكايات عن أبى حنيفة أو عن نفسه أحيانا. ولعل مما يدخل مجال الفائدة والخدمة المباشرة للمسافرين ذكره للمسافات والمراحل داخل كل إقليم. والاهتمام الذى يوليه لطريق ما يحدده مدى أهمية هذا الطريق، ولذلك فإنه: من ناحية يغفل تفصيل طرق المغرب، ويعلن أنه اختصر مسافات هذا الجانب وأجملها «لطولها وكثرتها، وقلة المسافرين فيها» (٢٤٧)، ومن ناحية أخرى يفرد لبادية العرب فصلا وخريطة مستقلين «لأن أحدا من أهل الأقاليم الثلاثة عشر لا طريق له إلى مكة فى البر إلا فيها، ولا غنى له عن معرفتها، وأيضا فإن فيها مناهج لا تعرف، ومياها قد تجهل. وفى ذكرها فوائد لا تحصى، وأجرو حسبة لا تخفى، وقد سافرت فيها غير مرة، ومسحتها يمينا وشمالا، وشرقا وغربا، وتفحصت عن طرقها، وسألت عن مياهها، وتبحرت فى معرفتها، حتى حزت الكثير من أسبابها، وعرفت معظم طرقها»(٢٤٨).

إلا أن التنفيذ الفعلى لم يف بما ادعاه المقدسى.

مع تلك التوجهات المنهجية الكبيرة. كانت هناك توجهات منهجية مهمة منها:

- البعد عن المجاز والمحال، وعدم السرقة أو التكرار، أو حتى النقل إلا حين ضرورة.
- المقارنة الدائمة بين البلدان، مما أكسب الكتاب كثيرا من الحيوية.
- الاعتذار عن السهو والخطأ، والنص على نسيان أسماء أو صفات مواضع بعينها.
- الوصف الآنى، الذى يعتمد على وصف الشىء كما رآه، وقتما رآه.
- أن المقدسى داعية وحدة، رأى ما عليه المسلمون من تفرق بسبب المذاهب والعصبيات والخلافات السياسية، فآلمه ذلك، ودعا المسلمين للاتفاق طالما أن أصول الإسلام لا خلاف عليها بينهم . وتطبيقا لهذه الدعوة، نفى عن نفسه

التعصب لمذهب أو فرقة أو دولة، ويشهد الكتاب فى بعض مواضعه على أنه لم يكن ملتزما تماما بتلك الدعوة، فهو يتعصب للحنفية، ويهب نفسه لخدمة الدولتين: السامانية، فالفاطمية.

- وقد حفظ لنا المقدسى بعض نصوص رحلات السابقين عليه؛ كرحلة مجاهد ابن يزيد وخالد البريدى إلى الكهف، ورحلة سلام الترجمان إلى السد.
- وإحصاءاته طريفة، ولكنها غير دقيقة فى الأغلب؛ كإحصائه ثلاثة آلاف حمل جمل فى كل أسبوع ـ كلها حبوب ودقيق ـ تخرج من مصر إلى الحجاز، أو إحصائه عشرة آلاف مصل يصلون قدام الإمام فى مسجد عمرو بن العاص بمصر.

ويمكن إضافة بعض الملاحظات الطريفة التى تدل على دقة نظر المقدسى، مثل:

- أن النيل كان يصب فى البحرين الأحمر والمتوسط قديما، نقل ذلك عن بعض العلماء المصريين، ليؤيد نظريته فى التقاء البحرين وتحديدهما.
- وأن بنائى المسجد الحرام من مصر والشام، بدليل أسمائهم المكتوبة على الحائط. (٧٣).
- وأن تسمية واسط بهذا الاسم سببها أن منها إلى بغداد أو إلى الكوفة أو إلى البصرة، أو إلى حلوان، أو إلى الأهواز، خمسين خمسين فرسخا ـ هو استدلال خاطئ لأن وسط العراق العاقول (١٣٥).
- وأن حَلَق العلم فى جامع عمرو بن العاص كثيرة، دخلتها مع جماعة من المقادسة، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين: دوروا وجوهكم إلى المجلس، فننظر، فإذا نحن بين مجلسين. على هذا جميع المساجد، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس»(٢٠٥).
- وكذلك لاحظ المقدسى أن المصريين «يكثرون الإشارة فى الصلاة، والنخع والمخاط فى المساجد، ويجعلونه تحت الحصير.. وأنهم يحبون رءوس السمك، ويقال: إنهم إذا ارأوا شاميا قد اشترى سمكا اتبعوه، فإذا رمى رءوسها أخذوها.

ويكثرون أكل الدلينس ـ أقذر شيء ـ حيوان بين زلفتين صغيرتين، يفلقان، ويحسى مثل المخاط» (٢٠٥)، إنه يعنى بذلك ما نسميه «أم الخلول».

ويصف أبا الهول بأنه صنم، يزعم أن «الشيطان كان يدخله فيكلمه حتى كُسر أنفه وشفتاه» (٢١٠).

أما أهل المغرب، فقد لاحظ عليهم ملاحظتين: «حب التغرب» (٢٣٦) و «البخل الشديد» (٢٤٣)، ولعل هذا الوصف بالبخل يتعارض تماما مع وصف ابن حوقل لهم بالكرم.

وقد لاحظ كذلك أنه: «إذ اتكلم أكثر أهل بخارا هزوا أكتافهم إلى فوق، ورأيت أبا بكر الإسمعيلى يفعل ذلك» (٣٢٨).

وأن «لأرمية عقبة فى طريق الموصل، يركب الناس فيها أعناق الرجال كما تركب الدواب لصعوبتها، ويربطون أرجل الصبيان بالسلاسل والحبال كى لا يتدحرجوا إلى البحيرة» (٣٨١).

إنها جميعا ملاحظات طريفة، وليس العجب من الملاحظات فى ذاتها، وإنما العجب من ذاكرة المقدسى كيف وعتها وحفظتها، ثم من جرأته التى جعلته يضمن هذه الطرائف الدالة فى كتابه، دون أن يخشى لوما ولا مؤاخذة.

الانطباع العام عن أسلوب المقدسى أنه صعب ومتكلف، ويتراوح الحكم عليه بين الاعتدال والمغالاة.

«فبروكلمان» يرى أن أسلوبه: «لا يخلو من بعض التصنع، ذلك التصنع الذى أخذ ينتشر فى الفترة التالية من دواوين الكتب إلى الأدب» وتتمثل الإضافة المهمة فى تأكيد بروكلمان على أن المقدسى لم يضع قط بالمحتوى فى سبيل الشكل [١].

و«آدم متز» يقرن المقدسى بابن حوقل فى الحكم، «فكلاهما قد انتهت إليه اللغة أكثر انصقالا ودقة، وأسلس قيادا مما وجدها المؤلفون المتقدمون. وقد استعملاها فى فنهما استعمال من يملك ناصيتها، وإن كان ابن حوقل فى ذلك أقل إظهارا لتكلف الطرافة والجمال من المقدسى»[٢].

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٤/ ٢٥٤.

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١٢/٢.

أما «كراتشكوفسكى» فقد تعرض لهذا الأمر فى موضعين: الأول حين تعليقه على الفصل الخاص بما عاينه المقدسى، حيث أوضح «أن هذه الحكاية مكتوبة فى لغة مسجوعة تحفل بالكثير من التعابير النادرة والإشارات المقتضبة؛ لذا فإنها تمثل أنموذجا طريفا لأسلوب المقدسى، ويبرز فيها ميله الواضح إلى السجع والنثر المقفى، وإن الصعوبات التى تعترض فهم هذه القطعة قد جعلت من ترجمتها أمرا عسيرا... وهذه القطعة تذكرنا بعض الشىء بالمقدمة المعروفة لليعقوبى ولكنها تمتاز عليها بحيوية أكثر فى العرض»(١).

وفى الموضع الثانى يعلن أن «لغة المقدسى وأسلوبه ينتميان لا إلى أعسر أساليب هذه المدرسة فحسب، بل إلى أعسر أساليب مدرسة الجغرافيين العرب إطلاقا. وإذا كان الإصطخرى يتبع أسلوبا مبسطا فى كتابه ويمكن تفسير بعض الوعورة فيه بأن اللغة العربية لم تكن لغته الأصلية، وأن ابن حوقل بدوره لا يخلو من آثار الصنعة والتكلف والميل إلى السجع، فإن المقدسى قد أوفى على الغاية فى هذا الباب؛ إذ بالرغم من تملكه لناصية اللغة، نراه يلجأ إلى الصنعة المرهقة، فيفسح المجال للسجع، لا فى بداية الكتاب وخاتمته فحسب، بل فى صلبه أيضا، ولداع أو لغير داع. ويحفل متن المقدسى بالألفاظ الصعبة القليلة الاستعمال، لأنه كان يميل بعض الشىء إلى غريب اللغة»(٢).

وإذا كان أغلب ما مر مآخذ على المقدسى، فإن فى صفه شيئين مهمين:

١ ـ محاولة رسم خريطة لغوية ـ إذا جاز هذا التعبير ـ للعالم الإسلامى.

٢ ـ إيجاد صلة قوية بين الأدب والجغرافيا، باستخدامه أسلوبا مزيجا من روح الفن وروح العلم. بل إن قطعا كاملة من الكتاب تعد أدبا خالصا.

فيما يتعلق بالشق الأول، يلاحظ أن وصف كل إقليم اقتضى وصف لغته فخصص المقدسى جزءا منفردا لذلك الوصف، وأسماه أحيانا «لغة أهل الإقليم»

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١/٢١٢ ـ ٢١٣
(٢) السابق ١/٢١٤.

وأخرى «لسانهم»، مما يعنى أن دلالةالمصطلحين واحدة عنده. غير أن هذا الوصف لم يكن مطرداً دوما، فثمة أربعة أقاليم لم يصفها المقدسى وصفا لغويا، واثنان آخران لم يفرد له فيهما مكانا، وإنما جاء الحديث عرضا فى المقدمة التقليدية لكل إقليم.

والوصف اللغوى فى الأقاليم الباقية يتراوح بين الاقتضاب ـ كما فى إقليم «أقور»، والتوسط ـ كما فى إقليم «خوزستان» والتوسع ـ كما فى إقليم «المشرق»، وربما كان حاكم ذلك أن الأخير يحوى أجناسا شتى ذوى لغات متعددة، وأن مساحته واسعة، بينما الأول صغير المساحة، ويقطنه جنس واحد، يتمثل فى عدة قبائل عربية.

وهذه الخريطة اللغوية ذات معالم صوتية وصرفية ونحوية ودلالية وإن كان الأول والأخير أكثر بروزا من الثانى والثالث.

وقد تكتسى هذه الملاحظات طابعا عاما، وتبدو وكأنها محاولة لملء فراغ، أو لتسويد بياض ـ كما قال الناسخ بحق ذات مرة، ونموذج ذلك وصفه المقتضب للغة أهل إقليم أقور، فهى «حسنة، أصح من لغة الشام، لأنهم عرب، أحسنها الموصلية» (١٤٦).

وقد لا يكتفى برصد الظاهرة اللغوية؛ فيجنح إلى تفسيرها؛ فأهل إقليم العراق «لغتهم مختلفة، أصحها الكوفية، لقربهم من البادية، وبعدهم عن النبط» (١٢٨).

وفى بعض الأحيان يعمد إلى المقارنة السطحية بين ظاهرتين، أو يسخر من ظواهر لغوية لجماعة بعينها لصالح أخرى، كسخريته من المصريين، انتصارا للشاميين، «فأهل الشام يعيبونهم أبدا، ويسخرون منهم، يقولون: مطر أهل مصر الندى، وطيرهم الحدا، وكلامهم ـ يا سيدى ـ رخو مثل النساء: أعزك الله، مالك كده؟» (٢٠٣).

ومماله دلالة هنا أن الذمة فى مصر ـ حينئذ ـ كانوا يتحدثون بالقبطية، وهذا

يعنى أن العربية لم تكن قد انتصرت انتصارا نهائيا على القبطية حتى نهاية القرن الرابع. وقد يأسره إقليم، فيتتبع لغته تتبعا دقيقا، ليخرج بملاحظات طريفة، كتلك التى خرج بها من إقليم الجبال، ومنها أن «أهل الرى يغيرون أسماءهم يقولون لعلى وحسن وأحمد: علكا وحسكا وحمكا. وأهل همذان أحمد لا ومحمد لا وعيشلا، وبساوة: أبو العباسان حسنان جعفران وأكثر كنى أهل قم: أبو جعفر، وأهل أصفهان: أبو مسلم، وبقزوين: أبو الحسين. وألسنتهم مختلفة: أما بالرى فيستعملون الراء، يقولون: راده، راكن، وأهل همذان يقولون ـ: واتم، واتوا، وبقزوين القاف، وأكثرهم يقولون للجيد «نج» ولسان الأصفهانيين وحش، وفيه مد. ولا يرى فى ألسنة الأعاجم أقرب مأخذاً من لسان أهل الرى» (٣٩٨). أما من حيث الملاحظات العامة، فقد أدرك المقدسى أن معظم أسماء البلاد الأعجمية على اسم من أنشاها، كما مال إلى التفسير اللغوى أو التاريخى الناجم عن حادثة بعينها فى بقية الأسماء، بل جنح إلى اختراع أسماء جديدة لم تعهد من قبل، كإقليم الرحاب، وإقليم الديلم، إضافة إلى مسلكه الطريف المتمثل فى محاولة استخراج خصائص أهل كل إقليم من اسمه.

ولعله ينفرد بتتبع التطور الدلالى لأسماء بعض البلاد، كما فى حالة سامراء، إذ يزعم أنها مرت بالأطوار التالية: سرور من رأى ـ سرمرى، ثم: ساء من رأى ـ سامراء» (١٢٢). ويعد تخصيصه فصلا منفردا للحديث عن المصطلحات والرموز التى استخدمها فى كتابه ـ يعد عملا رائدا فى زمانه.

إن المقدسى ممتلك لناصية اللغة، ولكن الإدلال الدائم بمقدرته وثقافته أدى به إلى مبالغة وإفراط كانا سببا فى الطعنات الموجهة إلى أسلوبه.

الملاحظ أن المفردات التى يستخدمها تبدو متنافرة ومغرقة فى الإغراب حين يتكلف وتتضخم ذاته رغبة فى الاستعراض، وأنها تسهل وترق حين يترك العنان لها، لتتحرك كيفما شاءت.

وقد ساعد على كثرة المفردات الغريبة والنادرة شيئان:

١ ـ أن الجزء الأكبر من الكتاب يحتله وصف البلاد الأعجمية، ومن ثم فقد

اضطر المقدسى إلى إيراد الكثير من المفردات الأعجمية، التى شرح بعضها حينا، وتغاضى أحيانا، ويتعلق بذلك عدم ضبطه أسماء المواضع ضبطا حرفيا ـ لا شكليا، مما يستدعى الإحالة إلى غيره ممن ضبطوها، وهذا النهج يسبب مشاكل كثيرة لكل من يتعرض للكتاب: بالتحقيق أو الدرس.

٢ ـ أن المقدسى زعم أننا «سنتكلم فى كل إقليم بلسانهم ونناظر على طريقتهم، ونضرب من أمثالهم، لتعرف لغتهم ورسوم فقهائهم، فإن كنا فى غير الأقاليم ـ مثل هذا الأبواب (أبواب المقدمة» تكلمنا بلغة الشام؛ لأنها إقليمى الذى به نشأت وناظرت.. ألا ترى إلى بلاغتنا فى إقليم المشرق؛ لأنهم أصح الناس عربية، ولأنهم تكلفوها تكلفا، وتعلموها تلقفا، ثم إلى ركاكة كلامنا فى مصر والمغرب، وقبحه فى ناحية البطائح؛ لأنه لسان القوم» (٣٢).

وواضح أنه يعنى بذلك الأسلوب بشكل عام، لا اختلافات الألفاظ الكتابية والمصطلحات فحسب، كما يذهب إلى ذلك كراتشكوفسكى. وقد قام المقدسى نفسه بجمع مثل هذه الاختلافات ـ سواء فى الألفاظ الكتابية أو المصطلحات العامة ـ فى فصل خاص، كما وفى بوعده فيما يتعلق بألفاظ أخرى، فالمركب يسمى «الجلبة» فى حديثه عن اليمن (٩٧)، وفى خوزستان يسمى «المركب» وفى واسط يسمى «السفينة» (١١٨). وفى الأقاليم العربية يستخدم «القصبة» و«المدينة» و«المخاليف» بينما يستخدم «الرستاق» و«الطسوج» و«الزموم» فى الأقاليم الأعجمية.

ومعنى هذا كله أن كتاب المقدسى يحتوى على ثروة لغوية كبيرة جديرة بدرس خاص يكشف عن أسرارها.

ويندرج فى إطار تضخم الذات استخدامه لضمير الجماعة حين الحديث عن نفسه، كبديل ـ يرضيه ـ عن ضمير المفرد.

والمقدسى مولع للغاية باستخدام الجملة الاسمية فى أبسط صورها ـ أى المكونة من مبتدأ وخبر مفردين حسب، بل إن الروابط بين الجملة وسابقتها وتاليتها شبه معدومة. وبذلك يشبه أسلوبه تلك القفزات الرشيقة الخفيفة، معتمدا على التوازن الكمى بين كل جملة وأخرى، ومستغلا التوافق الإيقاعى الذى

يحدثه السجع المفضل عنده.

ولكن ... أين الجملة الفعلية من هذا كله؟ وهل تستطيع أن تؤدى الدور نفسه الذى تؤديه الجملة الاسمية فى كتاب يفترض أنه فى «الأدب الجغرافى»؟

الاسم يدل على معنى، والفعل يدل على حدث وحركة، والرحلة فى جوهرها مجموعة أحداث متوالية تتسم بالحركة المستمرة الدائبة، ولذا فإن من الأفضل أن يعبر عن الحركة والحدث بما يدل على الحركة والحدث، أى بالفعل أو الجملة الفعلية، وبذلك لا تفقد الرحلة الحقيقية شيئا من حيويتها. وهذا بالفعل ما يمكن تطبيقه على ما كتبه المقدسى.

حين تستخدم الجملة الاسمية الرشيقة الخفيفة القصيرة، تشعر أنه يقفز بك، ولكن.. فرق كبير بين: القفز فى المحل، والقفز إلى الأمام. فى حال الجملة الاسمية يكون القفز فى المحل، وفى حال الجملة الفعلية يكون القفز للأمام. والأخير هو المطلوب قطعا.

استخدام الجملة الاسمية، والانبهار الشديد بالسجع، أوقع المقدسى فى حرج ـ وأى حرج، إذا اضطر إلى استجلاب الفاصلة لتدل على غرضه حينا، وتبعد عنه حينا، وتكون على شبه الضد منه أحيانا.

وليت المقدسى اكتفى بالسجع حسب، ولكنه أراد إثبات مقدرته مرة أخرى، فعكف على دراسة كل وجوه المحسنات اللفظية، توطئة لتضمينها فى كتابه، خاصة فى المقدمات التقليدية لكل إقليم، مثل وصفه للشام ومصر، وأيضا فى المدن الكبيرة كشهر ستان التى يصفها بقوله:

«هى مصر الإقليم وقصبة جرجان، كثيرة الفواكه والزيتون والرمان، ومشاكلة رملة فلسطين فى البلدان، لها بهاء وآئين، أهل مروة وإتقان، وفيهم وطاء وظرف ولطف وإحسان، حسنة الأسواق والمساجد والأتيان، جيدة البطيخ والحلواء والباذنجان، وكأنما عجن الخبز بالزيت والأدهان، بها النارنج والأترنج والعناب، والنخل لولا برد يفسد الأرطاب، وسمك عجيب شبه ثيران، فهى بلدة سرية

عظيمة القدر والشان، وأنهار عليها جسور طيقان، وبها علم ودين وأشياخ وأموال، وقد زخرفوا الجامع وأزروا الحيطان وهو بنصفين كفسا وبغداد، وعلى الرسم حذاء المنبر دكان، وإزاء دار الأمير إلى ثم ميدان، آذان بتطريب وألحان، والخطيب حنفى والإقامة اثنان، ولها البحر ورستاق دهستان، وقد غابت فى رياض وأشجار وأقصاب، وخرماروذ فلا تنسى فآفة العلم نسيان، به تين وزعرور ورمان، بلا منع ولاطرد ولا دفع أثمان، وجبال عامرة على نعت لبنان، وخانات ظريفة ومسجد دينار ـ فهذا كله صحيح ولكن.. فاسمع الآن: هو مصر حره شديده مع كرب وذبان وبراغيث ضارية إليها صرفنا اسم كركان، والتين حماء والماء آكران، ومن حلها من بلده فليعدد الأكفان، فإن بها منجلا يحصد الأبدان، وتراهم على رأس الجمل يوم النحر حزبان (حزبين)، فمجروح ومضروب وجيران، ولا يفارقهم مرج وقتل وجيشان، جيش من الديلم والآخر من ترك سامان، وتعصب وحش عليه الفريقان، وتشيع مفرط مع خلق قرآن، لها تسعة دروب أولها درب سليمان، ثم درب القومسيين ثم درب لشارع حيان، ثم درب كندة ثم درب الباذنجان، والباركاه قبله درب خراسان، فهذا ما أتقنته من وصف جرجان» (٣٥٧ ـ ٣٥٨)

وأطرف من هذا الوصف وصفه لمرو بأنها «قصبة نفيسة طيبة ظريفة، بهية رحبة خفيفة، أطعمة لذيذة بها نظيفة، منازل مليحة لهم أنيفة، من ظرفها للجانبين هى صنيفة، مشايخ أجلة عقولهم شريفة، الجامع بآناط لا خشب ولا سقيفة، وكل ليلة بمجلس عصائب عفيفة، مذكر فقيه يقفو أبا حنيفة، مدارس لكل دارس وظيفة، أسواقهم حسنة: ألا ترى صفوفها بالجامع الأعْلى من كل جانب لفيفة، وثم الدار المذكورة الرفيفة، بها إيوان صاحب الدولة الشريفة، ولا تسأل عن حمامات مرو ولا الهريسة والخبز والعقل والباس فإنها معروفة، وسل عن مياههم وكسبهم والمروات فإنها ضعيفة، وعن دهائهم وهرجهم فعندى منها صحيفة، أنباء صدق أنفسها معربة ظريفة، ولست ممن يأكل بعلمه رغيفه، لكننى طالب جنة وراغب فى دعوة كتيفة، فمرو بلدة سرية لو لم تكن من أهلها خفيفة، قد خربت إلا منازل طفيفة، وربض ثلثه مهدم كأنها سليفة،

منازل قد شعثت وأسقطوا سقوفه، وفسق ظاهر هروجهم معروفة، مكاسب ضيقة لهم فى طرهم لطيفة، لا سخاوة ولا رواس نظيفة، ولا لطينهم علاكة وفى الصيف حارة رشيفة»(٣١٠ ـ ٣٣١). والنموذجان كلاهما أقرب إلى الفكاهة اللغوية منهما إلى الرغبة فى توصيل المعلومات، وأطرف ما فيهما ـ وفى أضرابهما ذلك الانقلاب المفاجىء من ذكر المحاسن إلى ذكر العيوب، وهو الانقلاب الذى افتن فيه المقدسى فى مواضع عديدة. وإذا كان المقدسى قد شغف باستخدام الجملة الاسمية؛ فإنه لم يعن نفسه فى إيجاد الروابط الملائمة للجمل، بل أهملها فى أغلب الأحيان، فى حين يسرف فى استخدامها فى مواضع قليلة، كاستخدامه للواو فى وصف المصريين، وأنهم «لا نظير لأقلامهم، وزاجهم، ورخامهم، وخلهم وصوفهم، وخيشهم، وبزهم، وكتانهم، وجلودهم، وحذوهم، وهلمختاتهم، وليفهم، ووزهم، وموزهم، وشمعهم، وقندهم، ودقهم، وصبغهم، وريشهم، وغزلهم، وأشنانهم، وهريستهم، ونيدتهم، وحمصهم، وترمسهم، وقرطمهم، وقلقاسهم، وحصرهم، وحمرهم، وبقرهم، وحزمهم، ومزارعهم، ونهرهم، وتعبدهم، وحسن نغمتهم، وعمارة جامعهم، وحالومهم، وخيسهم، وحيتانهم، ومعايشهم، وتجاراتهم، وصدقاتهم. كل ذلك فى غاية الجودة» (٢٠٣ ـ ٢٠٤) إنه يستخدم الواو فى هذا النص القصير اثنتين وأربعين مرة، ولكن يلاحظ أن علاقة الجوار بين كل لفظة وأخرى ضعيفة، بل ثمة تنافر فى حالات بعينها، ولولا وجود الواو لأمسكت كل لفظة بتلابيب الأخرى ضجرا من صحبتها.إن النصوص السابقة تعتمد على الجملة الاسمية، وهناك نصوص قليلة تعتمد على الجملة الفعلية، ورغم قلة مثل هذه النصوص، فإنها تحوى كثيرا من شروط القصة القصيرة النموذجية، خاصة فيما يتعلق بالنهاية أو الجملة الختامية، إنها تلك النصوص القصصية التى تحكى مغامراته.

على سبيل المثال هناك هذا النص الذى يحكى عن إحدى مغامراته فى خوزستان التى يتهم أهلها بالسذاجة، يقول:

«ولما دخلت السوس، قصدت الجامع فى طلب شيخ أسمع منه شيئا من

الحديث، وعلى جبة صوف قبرصية وفوطة بصرية، فدفعت إلى مجلس الصوفية، فلما قربت منهم لم يشكوا إلا وأنا صوفى، فتلقونى بالترحيب والتحية، وأجلسونى فيما بينهم، وجعلوا يسألوننى، ثم بعثوا رجلا فأتى بطعام، فجعلت أنقبض عن الأكل ـ وما كنت صحبت هذه الطائفة قبل ذلك ـ فجعلوا يتعجبون من انقباضى وعدولى عن رسومهم، وقد كنت أحب أن أخالط هذه الطائفة، وأعرف طريقتهم وأعلم حقائقهم، فقلت فى نفسى: هذا وقتك، هذا موضع أنت به مجهول.

فانبسطت إليهم، وكشفت ثوب الحياء عن وجهى: فمرة كنت أراسلهم، ومرة أزعق معهم، وتارة أقرأ لهم القصائد، وأخرج معهم إلى الرباطات، وأذهب إلى الدعوات، حتى ـ والله ـ حللت من قلوبهم وقلوب أهل البلد بحيث لا غاية، ووقع لى بها اسم، وقصدنى الزوار، وحملت إلى الثياب والصرر. وكنت آخذه وأدفعه إليهم برمته فى الوقت؛ لأنى كنت غنيا وفى وسطى نفقة وافرة، وأناكل يوم فى دعوة ـ وأى دعوة، وكانوا يظنون أنى أفعله زهدا، وجعل الناس يتمسحون بى، ويذيعون خبرى، ويقولون: لم نر فقيرا قط أفضل من هذا.

حتى إذا وقفت على سرائرهم، وعرفت ما أردت منهم، هربت منهم فى سجو ليلة، فأصبحت وقد قطعت أرضا. فبينا أنا بالبصرة يوما، وعلى ثوبى ، وغلام يتبعنى، إذ رآنى رجل منهم، فوقف ينظر إلى شبه المتعجب، فجزت عليه شبه المنكر» (٤١٥).

وثمة نص آخر يحكى رغبته فى الحج بلا زاد، عملا بالعرف السائد لدى بعض الفرق الصوفية آنذاك (٢٢٥ ـ ٢٥٦).

ومثل هذه النصوص ذات العناصر القصصية قليل، ولكنه يمثل ظاهرة جديرة بالتوقف. إن انتهاج المقدسى لخطة لغوية تقتضى تفضيل الجملة الاسمية التى تميل إلى الاستقلال الذاتى، وإهماله للجملة الفعلية التى تميل إلى التواصل، هذا التفضيل وذلك الإهمال أديا إلى عدة نتائج، منها.

– افتقاد الصلة بين الجملة والجملة السابقة عليها أو التالية لها فى كثير من

المواضع، مما أظهر كل جملة نبتا شيطانيا بلا جذور ضاربة فى الأعماق.

– وترتب على ذلك أن الانتقال من جملة إلى أخرى افتقد المنطقية والتبرير.

– وإذا كانت الجمل تكون الفقرة ـ التى ستصبح بدورها غير متسقة فى إطارها العام، فإن منطقيا وطبيعيا أن تفقد الصلة بين الفقرة وما سبقها وما يليها. ساعد على ذلك ـ أيضا ـ الطبيعة الانفصالية للكتاب الذى يصف مواضع جغرافية.

– وبدوره أدى ذلك إلى خلل عام فى بنية الكتاب من الناحية الأدبية ـ كنص دال على شخص صاحبه، ومن هنا فلا غرابة أن مال المقدسى ـ فى ظل غياب خطة أدبية محددة ـ إلى الاستطراد والحشو وتكلف وجه صلة بين ما يريد تضمينه، وبين ما يجب أن يضمن بالفعل. ولو أن المقدسى تتبع خط سير رحلته من البداية إلى النهاية تتبعا تاما أو نسبيا، لأنقذ نفسه من هذا الخلط من وجهة نظر الأدب.

لكن.. من وجهة نظر أصول النهج العلمى، يسجل للمقدسى كل الإعجاب والتقدير لالتزامه بخطة دقيقة، وتغفر له بعض الزلات التى اقتضتها ذاته المتضخمة واستطراداته العديدة، وكذا يغفر له أن شبح التكرار يخيم كثيرا على وصفه؛ لأن طبيعة العلم أملت ذلك.

مع ذلك كله.. يلفت النظر ظاهرة هامة، تؤكد الصلة الوثيقة بين كتاب المقدسى والأدب، إنها استخدامه للحوار بين شخصيات متعددة، أو بينه وبين آخرين، أو الحوار ذى الطرف الواحد، أى الحوار الافتراضى بينه وبين ذاته. الحوار متعدد الأطراف اقتضاه اعتبار المقدسى نفسه مناظرا، فجعل يذكر المناظرات بنصوصها، ولكن يشكك فى حرفيتها كونه المنتصر دائما فيها. الجانب الحوارى الثانى يلاحظ عليه ملاحظة هامة للغاية، إذ يرتبط بالفكاهة غالبا، فيورث العمل حيوية من ناحيتين: من ناحية الحوار فى ذاته، ومن ناحية الروح الفكاهى السائد، ولا يغيب ـ هنا ـ التنبيه على أن كم المعلومات المتضمن فيها ذو دلالة على ظواهر بعينها، إنه يعطى معلومة مدسوسة فى ثنايا الحكاية، ليحقق بذلك

صفة يجب توافرها فى كتاب «أدب الرحلة».. إنها التقديم غير المباشر للمعلومة.

هناك نصوص عديدة تدعم هذا الرأى، منها تلك الحكاية: «وصف لى رجل بالزهد والتعبد، فقصدته وتركت القافلة خلفى، وبت عنده تلك الليلة، وجعلت أسائله، إلى أن قلت: ما قولك فى الصاحب (بن عباد) فجعل يلعنه، ثم قال : إنه أتانا بمذهب لا نعرفه قلت: وما هو؟ قال: يقول معاوية لم يكن مرسلا. قلت: وما تقول أنت؟

قال: أقول كما قال الله عز وجل: « لا نفرق بين أحد من رسله»، أبو بكر كان مرسلا، وعمر كان مرسلا.. حتى ذكر الأربعة، ثم قال: ومعاوية كان مرسلا.

قلت: لا تفعل؛ أما الأربعة فكانوا خلفاء، ومعاوية كان ملكا. فجعل يشنع على، وأصبح يقول للناس: هذا رجل رافضى، فلو لم تدرك القافلة لبطشوابى» (٣٩٩). وفى موضع آخر: «ذكر لى بعض علمائهم بكوه بيان، فقصدت مسجداً فيه رئيسهم مع جماعة من المشايخ، فسألتهم عنه، فبعثوا رجلا يدعوه، وجعلوا يسألوننى إلى أن قالوا: أهل بيت المقدس يصلون إلى الكعبة؟ وما يشاكل هذا من المعضلات.

قلت: عالمكم هذا يجلس إليكم؟ قالوا: نعم. قلت: ولم يعلم هذا المقدار؟! لا حاجة لى فى لقائه» (٤٦٩).

ويتصل بهذا الجانب الفكاهى تلك التعبيرات الطريفة المكثفة الدالة، التى تنم عن قوة ملاحظة، مثل:

- أهل الرساتيق خير من أهل القصبة، تراهم فيها سباعا، وفى غيرها نعاجا»(٢٧٣).
- إلا أنها جنة يرعاها بقر، قوم غنم، لا سخاوة ولا ظرافة، تحت عمائمهم مخاد، وفى معاملتهم فساد» (٣٨٨).
- فما أجله من إقليم لولا أهله، وما أحسن قصباته لولا مصره، لأنه يعنى الأهواز مزبلة الدنيا، وأهله فمن شر الورى» (٤٠٣)
- ولم أر بلدا أكثر عورا من كازرون، والمفاليج بشيراز كثير (٣٤٩).

- فالرى فوق ما وصفنا، إلا أن ماءهم يسهل، وبطيخهم يقتل (٣٩١).
- أهل طبرية: شهرين يرقصون، وشهرين يقمقمون، وشهرين يثاقفون، وشهرين عراة، وشهرين يزمرون، وشهرين يخوضون. يعنى: يرقصون من كثرة البراغيث، ويلوكون النبق، ويطردون الزنانير عن اللحم والفواكه بالمذاب، وعراة من شدة الحر، ويمصون قصب السكر، ويخوضون الوحل. (١٦١) والجانب الحوارى الثالث يمثله الحوار ذو الطرف الواحد، حيث ترك؛ المقدسى العنان لنفسه، مفترضا فى نفسه العلم والجلوس مجلس العالم، ومفترضا أن ثمة طلابا يسألونه، فيجيب عليهم، فيسألون، فيجيب.. وهكذا حتى يستوفى المسألة. وهو فى ذلك ينهج نهج الأرأيتيين الحنفيين الافتراضى.

obeikandl.com